المبحث الخامس

حضور الأماكن البدويَّة في النسيب الأندلسيّ

لقد تجاوز المكانُ في شعر النسيب البدويّ الأندلسيّ حدوده الجغرافيَّة، وتعدَّاها بإيحاءاتِه، ورموزه الشعريَّة، لأنَّه أصبح استبطاناً، وتأمُّلاً، وبوحاً شجيّاً، يعبق به هذا الشعر، الذي يسري فيه صوت الحنين السَّاحِر الدافئ لصحراءَ ممتدة، يملؤُ الشَّاعرُ فضاءَها الرَّحب صوراً وخيالاتٍ ورؤى، تجتمعُ فيها الأمكنةُ من العقيق ووادي القرى وتهامة إلى نجد، وتختلط فيها الأزمنة من امرئ القيس وذي الرُّمّة إلى الأندلس، ويتضوَّعُ فيها أريجُ الخزامى، ويتلوَّنُ فيها الشيحُ والعرارُ والغارُ والرَّندُ، وتلعبُ فيها الظباءُ والآرام، وتلهو بها هندُ وأسماء، أو ليلى ودعد، إنَّه خيالٌ لا يعرف حدوداً، فله أن يبوح بما يشاء، وأن ينقل هذا العالمَ البدويَّ السَّاحر، من فضاءِ الصّحراء الذي طالما اشتاق له وأحبَّه، إلى فضاء الشِّعر كيفما يشاء، لأنَّه شاعر، فليس من الضروريِّ أن نسأل:

هل شاهد الشَّاعرُ العقيق، ولعلع، وسلا؟!

هل مرَّ بالحمى وتنسَّم ريحَ الصبا، وهاجهُ لمعانُ البرق، وحنينُ الإبل؟

لأنَّنا نعلم أنَّ ما شاهده بالقلب قد يكون أمتع حضوراً في الشّعر من مشاهدةِ العين، لأنَّ الحنين باعثه، والخيال مصوِّره.

فقد كان حضور الأماكن البدويَّة قويّاً في صورة النسيب الأندلسيَّة، ويتردَّد رنينُ هذه الأماكن وصداها في هذه القصائد؛ كالجزع، ورامة، والمحصّب، والعقيق، ونجد، واللّوى، والخيف، وكرضوى، وثبير، وسلع، ولعلع، وقد يحشدُ الشَّاعرُ في الصُّورة ما يثريها بدويًّا، كلمع البرق، وتعريج المطايا والرَّكب، ومنظر الخيام، وحُداء العيس.

ومن الأماكن التي تردد ذكرها كثيراً عند الشعراء الأندلسيين (الخيف)[1] ، فقد يذكره الشاعرُ متخيّلاً أنّه مكان المحبوبة التي سحرته بلحظها ، وملكت قلبَه بهواها ، يقول ابن حمديس[2] :

ما ظنَّ من قبل تعذيبِ الهوى أسدٌ ... أنَّ التذلُّل من رئمٍ يذلّلهُ
ولا درى أنَّ سهمَ الخيفِ يقصدُه ... حتَّى رأى ساحرَ الألحاظِ يرسلهُ

ويأتي (المحصَّب)[3] كثيراً في النسيب الأندلسيّ وهو مكانٌ في بطحاءِ مكّة ، وهو أيضاً موضعُ رمي الجمار بمنى ، يقول ابن الأبّار ، يصف موقف الرَّحيل حيث تخبُّ المطايا بالرَّكب في السَّحر ، مُجتازةً الخيف فوادي السَّنا إلى المحصّب ، وهو حين يودِّعهم إنَّما يودِّع قلبه معهم يقول[4] :

إذا رحلَ الرَّكبُ العراقيُّ سُحْرةً ... إلى الخيفِ من وادي السَّنا فالمحصَّبِ
هتفتُ بكم : قلبي لديكم فعرِّجوا ... أودّعهُ إذ خبَّ المطيُّ بكم وبي
وإلاَّ فردُّوه عليَّ فإنَّهُ ... متاعٌ قليلٌ بعد قلبي تقلُّبي

---

(١) خيف : بفتح أوله وسكون ثانيه ، وآخره فاء ، هو ما انحدر من غِلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء ، ومنه سُمّي مسجد الخيف من منى ، وقيل خيف بني كنانة : هو المحصَّب وهو بطحاءُ مكَّة ، وخيف سلام : بلدٌ بقرب عسفان على طريق المدينة ، وخيف الحميراء في أرض الحجاز ، وخيف الخيل موضع آخر ، وخيف ذي القبر أسفل من خيف سلام . وبه نخيل كثيرٌ وموزٌ ورُمَّان ، وخيف النَّعم ، وبه نخيل ومزارع وهو إلى عسفان ، ومياهه كثيرة . انظر : معجم البلدان ، ياقوت، ٢/٤١٢.

(٢) ديوان ابن حمديس ، ص٣٥٣ .

(٣) المحصَّب : بالضمّ ثم الفتح ، وصاد مهمله مشدَّدة ، اسم مفعول من الحصباء ، أو الحصب ، وهو الرمي بالحصى ، وهو صغار الحصى وكباره ، وهو موضع فيما بين مكَّة ومنى ، وهو إلى منى أقرب ، وهو بطحاء مكة ، وهو خيفُ بني كنانة ، وحدُّه من الحجون ذاهباً إلى منى ، والمحصَّب أيضاً موضع رمي الجمار بمنى . انظر : معجم البلدان ، ياقوت ، ٥/٦٢ .

(٤) ديوان ابن الأبّار ، ص٥٨ .

وممّا كثر ذكره أيضاً في النسيب الأندلسيّ (الأجرع) [١] فيقولُ الرَّصافي البلنسي ، في هذا المكان الذي يعطِّرُ أنسامه وجود محبوبته هند فيه[٢] :

ألأجـــرع تحتلُـــه هنـــدُ ... ينـــدى النســـيمُ ويـــأرجُ الرَّنـــدُ
ويطيـــبُ واديـــه بموردهـــا ... حتّـــى ادَّعـــى في مائـــه الـــوردُ

أمَّا ابن هانئ ، فيقولُ طالباً من صاحبه التعريج على الأجرع واللّوى على العادة الجاهليّة ، إذ كانت ديارَ المحبوبة ، وهي على أنَّها أضحت رسوماً ، إلاّ أنَّها لا تزال تعبق برائحة صاحبته النَّفاذة ، والمعنى عند ابن هانئ أقوى منه عند سابقه ، لأن رائحة المحبوبةِ بقيت حتّى بعد خلوِّ المكان من أهله ، وليس ذلك فقط بل حتّى أصبح رسوماً ، بينما كانت رائحةُ المحبوبة عند الرَّصافي تملأ المكان لوجودها فيه ، يقول ابن هانئ[٣] :

هلمَّا نحيِّي الأجـرعَ الفـردَ واللَّـوى ... وعوجَا على تلـك الرُّسـومِ وعرِّجـا
مـواطئ هنـدٍ في ثـرى متـنفَّسٍ ... تضـوَّع مـن أردانـهـا وتأرَّجـا

ويذكر الشعراء (لعلع) [٤] و (رضوى) [٥] و (ثبير) [٦] وهي من الجبال المشهورة في بوادي نجد والحجاز .

---

(١) الجَرَعُ : بالتحريك ، جمع جَرَعَة ، وهي الرَّملةُ لا تنبتُ شيئاً .
انظر : معجم البلدان ، يقاوت ، ١٢٧/٢ .
والجرِعَة ، والجَرْعَةُ والأجرع والجرعاء : الأرض ذاتُ الحزونة تشاكل الرَّمل ، وقيل الرَّملةُ السهلة المستوية ، وقيل الدَّعص لا تنبتُ شيئاً ، وقيل الأجرع كثيبٌ جانبٌ منه رملٌ وجانبٌ حجارة ، وقال ابن الأثير : الأجرع المكان الواسع الذي فيه حزونة ، وخشونة ، وقيل موضعٌ بالكوفة ، اللّسان : مادة (جرع) .
(٢) ديوان الرَّصافي ، ص٥٨ .
(٣) ديوان ابن هانئ ، ص٦٦ .
(٤) لَعْلَع : بالفتح ثمَّ السكون ، جبلٌ كانت به وقعة ، وقيل ماءٌ في البادية ، وقيل لعلع منزلٌ بين البصرة والكوفة ، انظر : معجم البلدان ، ياقوت ، ١٨/٥ .
(٥) رضوى : بفتح أوله وسكون ثانيه ، جبلٌ بالمدينة ، وقيل إنَّ بشعابه مياهاً كثيرة وأشجاراً ، انظر : معجم البلدان ، ياقوت ، ٥١/٣ .
(٦) ثبير : بالفتح ثم الكسر وياء ساكنة ، من أعظم جبال مكّة ، بينها وبين عرفة ، انظر : معجم البلدان ، ياقوت ، ٧٤/٢ .

يقول ابن الخطيب مسلِّماً على أحبَّته ذاكراً الصَّبا والبرق الذي يومض من ناحية لعلع ،وهو ممَّا يهيجُ الذّكرى ويؤجّجُ الحنين[1] :

عليكم سـلامُ اللهِ مـا هبَّـتْ الصَّـبا … ومـا لاحَ بـرقٌ في أجـارعِ[2] لعلـعِ

ويقـول ابن الخطيب أيضاً يصفُ شوقَه لمن يحـبُّ ، ويبالغُ في الوصف حيث يجعل من هذا الشَّوق جيشاً جرَّاراً يزلزل لقوَّته وعظمته جبلي رضوى وثبير فكيف به[3] :

أدافعُ مـن شـوقي ووجـدي كتائبـاً … يزلـزلُ رضـوى عنـدها وثـبيرُ

أمَّا (رامة) [4] و (وجرة) [5] ، فلاشتهارهما في الشِّعر البدويّ بأنهما منازل الوحش ـ وقد شبِّهت النِّساءُ بالظباء والعِين في جمال العيون وسعتهما (كأنَّ عيونهنَّ عيونُ عين) [6] ـ فقد كثر ذكرهما في النسيب الأندلسيّ ، ونَمَا الشعراء إليهما من أحبُّوا من النساء ، وفي ذلك يقول ابن الأبَّار ، يصف حنينه لهذه الأماكن ، ويصفها بأنَّـها ملعبٌ للظباء[7] :

تحـنُّ إلى ملعـبِ للظبـاء … بكثبـانِ رامـةَ أو غُـرَّب[8]

---

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢/٦٥٥ .

(٢) أجارع : جمع أجرع وهو كثيبٌ جانب منه رملٌ ، وجانب حجارة ، اللِّسان : مادة (جرع) .

(٣) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ١/٣٩٤ .

(٤) رامة : آخر بلاد بني تميم ، وقيل هضبة ، وقيل جبل لبني دارم ، انظر : معجم البلدان ، ياقوت ، ٣/١٨ .

(٥) وجرة : بالفتح ثم السكون ، قيل مكان بين مكة والبصرة ، بينها وبين مكة نحو أربعين ميلاً ، ليس فيها منزل فهي سربٌ للوحش ، وقيل هي سرَّة نجد ، لا تخلو من شجر ومرعى ، ومياه ، والوحش فيها كثيرة . انظر : معجم البلدان ، ياقوت ، ٥/٣٦٢.

(٦) من بيت لعبيد بن الأبرص :

فقـد ألجَ الخبـاء علـى العـذارى … كـأن عيونـهـن عيـونَ عـينِ

ديوان عبيد بن الأبرص ، ص١٤٦ .

(٧) ديوان ابن الأبَّار ، ص١٠٤

(٨) غرَّبٌ : قيل ماء بنجد ، انظر : معجم البلدان ، ياقوت ، ٤/١٩٢ .

ويقول ابن الزَّقَّاق البلنسي ناسباً محبوبته أيضاً إلى رامة أو غُرَّب لجمالها الذي أشرق في نفسه كالشمس[1] :

يـا شمـسَ خـدرٍ مـا لهـا مغـربُ   أرامـةُ دارك أم غُـرَّبُ

ويشبِّه ابن الأبَّار عيني محبوبته بعيني ظبيةٍ من وجرة تُصمي القلوب[2]:

وقيـذاً رمـاني مـن جـآذرِ رامـة   مُصـادِفَ حبَّـاتِ القلـوبِ إذا رمـى
كـأنَّ لـه ثـأراً لـدى كـلِّ رامـقٍ   فينضو له عَضْباً[3] من اللَّحظِ مُخْذمَا[4]

وفي هذا المعنى ، معنى سهام اللَّحاظ المصيبة لمحبوبةٍ تُشبه ظبيةً من وجرة ، يقول ابن فُركون[5] :

لمـن الرَّكائـبُ نحـو رامـةَ ترتمـي   مـن بعـدِ طـولِ تأمُّـلٍ وتلـوُّمِ
عوجـاً كأمثـال القسـيِّ ضـوامراً   مهما ارتمَـينَ يصـبنَ شـاكلةَ الرَّمـي

أمَّا ابن سهل فقد شبَّه لحاظ محبوبته بلحاظِ ظبيةٍ من وجرة على نحو ما فعل غيرُه ، ولم يَفُتْهُ أن يُشبِّه أهلها الذين يحرسونها بأسود عرين ، يسدُّون دونه الطرق إليها ، ويمنعون عنه حتّى طيفَها[6] :

وبمهجـتي ألحـاظُ ظبيـةِ وجـرةٍ   حُـرّاسُ مسـكنها أسـودُ عـرينِ
سَدُّوا عليَّ الطُّـرقَ خـوفَ طـريقِهم   فـالطيفُ لا يسـري علـى تـأمينِ

وقد أكثر الشُّعراء من ذكر أسماء مياه البادية في ثنايا نسيبهم ، ووجدوا فيها ما وجده البدويُّ من حاجةٍ للماء الذي يروي ظمأه ، فجعلوها رمزاً للتشوُّق

---

(١) ديوان ابن الزَّقَّاق ، ص٨٠ .

(٢) ديوان ابن الأبَّار ، ص٢٨١ .

(٣) العضب : السيف القاطع ، اللِّسان : مادة (عضب) .

(٤) السيف المخذم : السريع القطع ، اللِّسان : مادة (خذم) .

(٥) ديوان ابن فركون ، ص٣٢٨ .

(٦) ديوان ابن سهل ، ص٢٢٣ .

لكلّ ما يروي القلبَ ويملؤ المشاعرَ دفئاً ساحراً ، فذكروا (العقيق)[1] و(العُذيب)[2] و (بارق)[3]، وترشّفوا من مياهها الصافية العذبة الممتدَّة في هذا الشعر البدوي ، فجالت في حنايا شعرهم موارده وعذوبته ، وصفاء النفس التي تنهلُ منه ، وأصبحت رمزاً للاشتياق والوجد .

وما العُذيبُ وبارقُ والعقيق ، عند أنهار الأندلس ، وتدفُّق مياهها ، وغزارة منابعها؟!!

ولكنَّه حنينُ البدويَّة التي سكنت القصر فهاجها الشوقُ للأرواحِ التي تخفق بخيمتها في البادية ، فقالت[4] :

---

(١) العقيق : بفتح أوله : وكسْر ثانيه ، وقافين بينهما ياء مثناة من تحت ، العرب تقولُ لكلّ مسيلِ ماءٍ شقَّهُ السَّيل في الأرض ، فأنهره ووسَّعه ، عقيق ، وفي بلاد العرب أربعة أعقّة ، وهي أوديةٌ عاديَّةٌ شقّتهَا السيول ، والأعقَة الأودية ، ومنها عقيقُ عارض اليمامة ، وعقيقُ اليمامة ، وعقيقُ تمرة ، وعقيقٌ بناحية المدينة فيه عيون ونخل ، وقد ذكر ياقوت مواضع أودية كثيرة يقال لها عقيق ، وقال بعد ذلك إنَّ الشعراء أكثروا من ذكر العقيق ، وذكروه مطلقاً ، انظر : معجم البلدان ، ياقوت ، ١٤٠/٤ .

(٢) العُذيبُ : تصغيرُ العذب وهو الماء الطيّب ، وقيل هو وادٍ لبني تميم ، وقيل هو ماءٌ بين القادسيَّة والمغيثة ، فدل على أن هناك عذيبين . انظر : معجم البلدان ، ياقوت ، ٩٢/٤ .

(٣) بارق : ماء بالعراق وهو الحدُّ بين القادسيَّة والبصرة ، من أعمال الكوفة ، وقد ذكره الشّعراء فأكثروا ، وقيل بارق ماءٌ بالسّراة ، وقيل موضع بتهامة . انظر : معجم البلدان ، ياقوت ، ٣١٩/١ .

(٤) الأشباه والنظائر ، الخالديان ، ١٣٧/٢ .
والأبيات منسوبة إلى ميسون بنت بحدل الكلبيَّة ، وكانت قد تزوّجت معاوية ، وانتقلت من بادية كلب إلى قصره ، وتتمَّة الأبيات :

وبكــرٌ يتبــعُ الأظعــانَ صــعبٌ ... أحــبُّ إليّ مــن هــرٌ ألــوف

ولــبسُ عبــاءة وتقــرُّ عــيني ... أحــبُّ إليّ مــن لــبس الشــفوف

وخــرق مــن بــني عمّــي نحيــفٌ ... أحــبُّ إليَّ مــن علــجٍ عليــف

وقيل إن معاوية لمّا سمع هذه الأبيات قال : ما رضيت والله ابنةُ بحدل حتّى جعلتني علجاً عنيفاً

لَبيــــــتُ تخفــــقُ الأرواحُ فيـــــه   أحـــبُّ إليَّ مــــن قصـــرٍ منيـــفِ
وأصـــواتُ الرِّيـــاح بكـــلّ فـــجٍّ   أحـــبُّ إليَّ مــــن نقـــرِ الـــدُّفوفِ

يقول ابن الأبـَّار ، ذاكراً العُذيب وبارق ، داعياً لمن حوله بالسُّقيا حيث محبوبته أروى ، فهو يدعو للمكان ، ويقصد ساكنته[1] :

سقى الغيثُ أكنــافَ العُــذيبِ وبــارقِ   وروّى بــهــامي صــوبه حيثُمــا أروى
معاهـــدُ أهـــوى أن تكَـــرَّ عهودُهـــا   وأنّى وقد شـــطَّ المـــزارُ بمـــن أهـــوى

ويقولُ ابن زُمرك مشبّهاً ريق محبوبته بماء العُذيب ، وبارق ، ويشبّه هذا الرّيق بماء النعيم ،ممّا يدلُّ على ما يمثّلهُ هذا الماء في المخيّلة العربيَّة من رمزٍ للصفاء والعذوبة والنَّقاء ، إذ يقول[2] :

وليلةَ بـــاتَ البـــدرُ فيهـــا مضـــاجعي   وباتَتْ عيونُ الشُّـــهبِ تحـــوي روانيَـــا
كرعتُ بـــهـــا بين العُـــذيبِ وبـــارقٍ   بمـــوردِ ثغـــرٍ بـــاتَ بالـــدُّرِ حاليـــا
رشفتُ بـــه شـــهدَ الرُّضـــابِ سُـــلافةً   وقبلّـــتُ في مـــاءِ النَّعـــيمِ الأقَاحيـــا

أمَّا العقيق ، فقد كثر ذكره في الشّعر البدويّ الأندلسيّ وأوحى بكلّ ما فيه من رنين موسيقيّ شجيّ عذب ، بذكرى شيِّقةٍ عزيزة على النفس ، فلم يعُد العقيق عقيق الوادي ، بل أصبح عقيق الذكرى ، وعبقها في آن واحد ، فهذا العقيق ((بقيَّة ضئيلةٌ من حلم الإنسان بالأرض عندما كان يسودها العدل ، فالعقيقُ استعارةٌ للعذوبة والفرح ، وأجواء الجنَّة أيضاً ، وهو عُرْفٌ شعريّ ، ولكن مثل كلّ الأعراف التي تتبرعم قريباً من الجذور الثقافية ، يحتفظ العقيق داخل نفسه بمعناه المركزيّ ، وأصله الاشتقاقيّ من الذاكرة الرَّمزيَّة ، وهكذا فحسب يمكن أن يُنجز استمراريَّة شعريَّة))[3].

---

(١) ديوان ابن الأبـَّار ، ص٤٣٥ .

(٢) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٥٢٠ .

(٣) صبا نجد ، (شعريّة الحنين في النسيب العربي الكلاسيكي) ، تأليف : بروفسير باروسلاف ستيكيفيتش ، ترجمة : دكتور حسن البنا عز الدين ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض ، ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤م ، ص٤٤٣ .

يقول ابن الزَّقَّاق باكياً العقيق ، أو بالأحرى ما مضى من ذكرى تدرُّ الدُّموع ،ويقابل صورة إدرار الدُّموع هنا بصورة الظَّمأ الرُّوحي لما حنَّ إليه ، فذكر ما يوازيه حنيناً في النفس العربيَّة ، وهو العقيق يقول[1] :

أبكي العقيقَ وأيَّاماً به سَلَفَتْ ... سقى العقيقَ مُلثٌّ[2] الودقِ[3] حنَّانُ
فكلَّما زادَ دمعي زادني عطشاً ... فالقلبُ ظامٍ وجفنُ العينِ ريَّانُ

وفي مثل هذا المعنى يقول ابن اللبَّانة الدَّاني ، جاعلاً من العقيقِ الذِّكرى رمزاً لشبابٍ تولّى[4] :

يهوى العقيقَ وساكنيه وإن يكن ... خبرُ العقيقِ وساكنيهِ قد انقضى
ويودُّ عودتَهُ إلى ما اعتادَهُ ... ولقلَّمَا عادَ الشَّبابُ وقد مضى

وقد وجدنا في هذين البيتين ارتباطاً وثيقاً بين المحبوبة والمكان والشباب ، حيث الذِّكرى تؤجّج الشَّوق لعهد قديم ، ولذا فإنَّه في هذا النسيب الذي تُذكر فيه الأماكن البدويَّة ، قد تختلط هذه الأمكنةُ بما في نفس الشَّاعر من توقٍ إلى كلِّ ما أراده أو تمنّاه .

وفي مثل سياق الحنين إلى شبابٍ مضى ، وعهدٍ تولّى جمع الشَّاعر بمن أحب ، يذكر ابن خفاجة العقيق[5] :

ألا ليتَ أنفاسَ الرِّياحِ النواسمِ ... يُحيين عنّي الواضحاتِ المباسمِ
ويرمينَ أكنافَ العقيقِ بنظرةٍ ... تردَّدُ في تلكَ الرُّبى والمعالمِ
ويلثمنَ ما بينَ الكثيبِ إلى الحمى ... مواطئَ أخفافِ المطيِّ الرَّواسِمِ
فما أنسهُ لا أنسَ يوماً بذي النَّقا ... أطلنا بهِ للوجدِ عضَّ الأباهمِ

---

(١) ديوان ابن الزَّقَّاق ، ص٢٧٦ .

(٢) الملثُ : المطر يدوم أياماً لا يقلع ، اللِّسان ، مادة (لثث) .

(٣) الودق : السَّحاب ، اللِّسان : مادة (ودق) .

(٤) ديوان ابن اللَّبانة الداني ، ص٥٩ .

(٥) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٥٨ .

فالشاعر هنا يمزج بين حنين المكان ، وحب الصَّاحبة ، وبهذا يجمع للمكان شوقين ، شوق له من حيث هو موضعٌ للحنين ، وشوق له من حيث هو ذكرى لقاء مع صاحبة أطال بها للوجدِ عضَّ الأباهم ، ويحدِّثنا بأنَّه زار هذا المكان ، ولقي فيه هذه الصاحبة ، ثمَّ غادره ، ثمَّ حنَّ إليه ، ثمَّ تودَّد لأنفاس الرياح النواسم لتنوب عنه في تحيَّة الواضحات المباسم ، لأنَّ أنفاسَ الرِّياح طليقة ، ومالكة لكلّ الفضاء وذاهبةٌ إلى حيث تريد ، وقال (أنفاس الرياح) ولم يقل الرِّياح أو النواسم وإنَّما اختار أنفاسها لأنَّها هي التي تنقل إلى واضحات المباسم زفراتِ نفسِه ، وقوله (يلثمن ما بين الكثيب إلى الحمى) فيه ولعٌ شديدٌ بهذه البقاع ، حتّى يبلغ به الأمرُ تمنِّي تقبيلَ مواطِئ أخفافِ الإبل فيها ، هي نفسٌ إنسانيةٌ شاعرةٌ داخلتها صورُ البادية وأرضها ، وصارت هذه العناصر البدويَّة بكلِّ ما فيها من دقائق ، أمسَّ رحِمًا في الشِّعر الأندلسيّ منها في غير هذا الشِّعر ، لأنَّ النَّائي المتشوِّقُ لمكَّة ونجد ، وغيرها ، أكثر انفعالاً بها من المقيمين فيها ، ((وأوَّلُ ما يسترعي الانتباه هو العلاقة الوجدانيَّةُ الحميمةُ التي نشأت بين ذات الشَّاعر ، وبين المكان الذي هو منه ، إذ نرى قلبه يخفقُ لدى تذكُّره له ، ويمتلئُ بالأسى والحسرة على ربوعٍ هجرها ، كانت مرتعاً لقضاء أوقاته مع الأهل والأقرباء ، فيروح يبكيها ممثلاً بذلك حسرة الإنسان أمام الأشياء المتصرِّمة ، التي تحملُ في سكونها وأشلائها عواطفَ النفس ، وحنينها إلى زمنٍ جَلاه الشَّوق وطهَّره البُعد فإذا هو رمزٌ للماضي ، والسعادة ، والحبّ ، وتتجلّى قيمةُ النصّ في حلاوة القافية ، وقوّة العاطفة الصادقة لدى العرض ، والتعبير عمَّا يجول في خاطره))[١].

أمَّا (اللَّوى)[٢] فيكثر الشعراء من ذكره في النسيب الأندلسي ، وقد يذكره

(١) الإنسان الأندلسيّ بين واقعه العربي وما طمح إليه ، دكتور ضاهر أبو غزالة ، ص١٤٠.

(٢) اللّوى : بالكسر وفتح الواو والقصر ، هو في الأصل منقطع الرَّملة ، وهو أيضاً موضعٌ بعينه قد أكثرت الشعراء من ذكره ، وخلطت بين ذلك اللّوى والرَّمل ، فعزَّ الفصلُ بينهما ، وهو وادٍ من أوديةٍ بني سليم .
انظر : معجم البلدان ، ياقوت ، ٢٤/٥ .

الشَّاعر في القصيدة الواحدةِ أكثرَ من مرَّة ، ممَّا يشير إلى حُبّ الشعراء لترديد أسماء هذه الأمكنة إذ يقول ابن الأبَّار يصف حنينه لعهد مضى ، وذكرى محبوبةٍ تيَّمته[(١)] :

حنيناً لعهدِ المنحنى أنبأَ الضّنى ... بما قرَّ في الأحناءِ منه وترجَمَا
وذكرى كسقط الزَّند رُدِّد قدحُه ... بسقطِ اللّوى تثني الخليَّ متيَّما

وقوله (سقط اللّوى) يستحضر بيت امرئ القيس المشهور في أوَّل معلقته (قفا نبك)[(٢)] :

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ ... بسقط اللوى بين الدخولِ فحوملِ

ثم يذكر ابن الأبَّار اللّوى مرةً أخرى في القصيدة نفسها ، حين يُعرّض بلوم العذال له على حبّه ساكنة اللّوى ، وكثرة سحّه الدموع عليها[(٣)] :

وما الحبُّ إلا ما طويتُ جوانحي ... عليه فأبدتْه المدامعُ سُجَّما
ألامُ على ليِّ العنانِ إلى اللّوى ... وأعذلُ في حومِ الجنانِ على الحمى
وحيث القبابُ الحمرُ بيضاءُ غادةٌ ... عقدتُ بها حبلَ الهوى فتصرَّمَا

والشَّاعر هنا يلوي عنان راحلته إلى اللّوى ويحوم بجنانه على الحمى ، وقد ذكر أنَّ الذي دعاه إلى ذلك عقد الهوى المتصرّم مع القباب الحمر ، وقوله (ليّ العنان) فيه معنى جليل ، لأنَّ ليّ العنان إلى اللّوى يعني اشتغال القلب وهو في بلده النائي بهذا اللّوى الذي هو مجتمع الرَّمل في أرض الشّعر الأوَّل . . وكأنَّ الشعر نفسه يلوي عنان راحلته ليعود إلى منبعه الأول ، وكلُّ شعر ناءٍ عن الجزيرة يلوي عنانه نحو منبعه الأوَّل ، ولا يقتصر الأمرُ على الأندلسيين فحسب ، بل يمتدُّ حتّى العصور المتأخرة ، كما قال الشاعر الحديث[(٤)] :

---

(١) ديوان ابن الأبَّار ، ص٢٨١ .
(٢) ديوان امرئ القيس ، ص٢٢ .
(٣) ديوان ابن الأبَّار ، ص٢٨٢ .
(٤) إبراهيم ناجي ، ديوان وراء الغمام ، دار العودة ، بيروت ، ط . الثانية ، ١٩٧٩م ، ص٢٠ .

هـــذه الكعبـــةُ كُنّـــا طائفيهـــا　　والمصـــلّين صـــباحاً ومســـاءَ

ويوغِلُ ابن الزَّقّاق البلنسي في البداوة ، حين يصفُ رحيل الظعائن من أهل اللّوى ، وما يخلفه هذا الرحيلُ من أسى وحزن في قلب الشّاعر ، دعاه إلى البكاء حتّى بل نجادَه ماءُ عينيه ، كما بلّتْ دموع امرئ القيس نجاد سيفه لغزارتها وكثرتها[1] ، إذ يقول ابن الزَّقّاق[2] :

ألوت بأهلِ اللّـــوى المهريّـــةُ النجـــبُ　　فـــالحيُّ لا أمـــمٌ منّـــا ولا كثـــبُ

لا عُـــذرَ للعـــينِ إن هبّـــت يمانيـــةٌ　　ولم يبـــلَّ نجـــادي ماؤُهـــا السَّـــربُ

نـــوى شـــطونٌ[3] وجـــيرانٌ نشـــدتُهم　　عهدَ الجوارِ علـــى بُعـــدٍ فمـــا قربُـــوا

ويسترفد ابن الزَّقاق أيضاً في هذه القصيدة من الأماكن البدويَّة (الجزع)[4]، يقول[5] :

أســـتودعُ الله أقمـــاراً علـــى إضـــمَ[6]　　تنازعُ الحلـــي في لبّاتـــهـــا الشُّـــهبُ

ناديتها بمغـــانـــى الجـــزعِ مـــن كثـــبٍ　　حُيِّيـــتِ أيّتـــها الأغصـــانُ والكُثُـــبُ

يـــا لائمـــيَّ غـــداةَ الـــبينِ لومكمـــا　　لنارِ قلبي على شحطِ النّـــوى حصـــبُ

أمّا ابن خفاجة فيذكر اللّوى في معرض تغنيِّه بمحاسن الطبيعة ، حيث يظهر الغديرُ والظلُّ فوقَه كحسناء لها طُرَّة فوق جبهتها تزيّنها ، وهنا تشبيه

---

(١) وهو قول امرئ القيس المشهور :

ففاضت دمـــوع العـــين منّـــي صـــبابةً　　على النّحرِ حتّى بـــل دمعـــي محملـــي

ديوان امرئ القيس ، ص٢٥ .

(٢) ديوان ابن الزَّقّاق ، ص٨٨ .

(٣) شطون : من شطن وهو بعد ، اللّسان : مادة (شطن) .

(٤) الجزع : جزع بني كوز : من ديار بني الضباب بنجد ، والجزع منعطف الوادي ، وجـزع بنـي حماز : وادٍ باليمامة ، وجزعُ الدّواهي : موضعٌ بأرضِ طيء . انظر : معجم البلدان ، ياقوت ، ١٣٤/٢.

(٥) ديوان ابن الزَّقّاق ، ص٨٨ .

(٦) إضم : ماء يطؤه الطريق بين مكة واليمامة ، وقيل وادٍ بجبال تهامة ، وقيل وادٍ بالمدينة ، وهو أيضاً جبل بين اليمامة وضربة . انظر : معجم البلدان ، ياقوت ، ٢١٤/١.

عكسي ، فقد شبَّه الغدير بالمرأة الحسناء ، وليس العكس ، وهو ممَّا أبدع فيه ابن خفاجة ، حين يُسبغ على الطبيعة صفاتِ الأنوثةِ والدَّلال ، فهذا الماء (بمنعرج اللِّوى) يهتزُّ فوقه الأيك حينَ تحرِّكُهُ نواسمُ الريح الربيعيَّة الذكيَّة ، وهنا وجدنا ابن خفاجة في معرض وصفه للطبيعة الموضوع الذي اشتهر به لا ينسى أن يرمز إلى حنينه لهذا المكان وهذه الذكرى (بمنعرج اللِّوى) ، ولعلَّ هذا ما قصده حين علَّق على إحدى قصائده[1] في ديوانه بقوله (إنها خيالات تنصب) إذ يقول : ((وأمَّا أسماءُ تلك البقاع وما انقسمت إليه من صفةِ نجدٍ أو قاع فإنَّما جاء بها على أنَّها خيالاتٍ تنصب ، ومثالاتٍ تُضرب ، تدلُّ على ما يجري مجراها ، من غير أن يُصرِّح بذكراها ، توسُّعاً في الكلام ، يُكتفى بها دلالةً عليها عبارة ، ويستحسن إيماءَةً عليها وإشارة))[2].

فأشار ابن خفاجة بذلك إلى أن الأماكن النجديَّة والحجازيَّة قد تذكر في الشِّعر ، ويراد بها أُخرى ، ممَّا دل به على تكثُّف الرَّمز فيها ، يقول ابن خفاجة[3] :

وإنِّي وإن جئتُ المشيبَ لمولعٌ ... بطرَّة ظلٍّ فوقَ وجهِ غديرِ
فيا حبَّذا ماءٌ بمنعرجِ اللِّوى ... وما اهتزَّ من أيكٍ عليه مطيرِ
ونفحةِ ريحٍ للرَّبيعِ ذكيَّةٍ ... ولمحةِ وجهٍ للشَّباب نضيرِ

---

(١) ذكر ابن خفاجةٍ في التقديم لهذه القصيدة أنَّها في رثاء جماعةٍ من الإخوان ، وفي مدح أبي العلاء بن زهر ، وقد جمع فيها بين الرثاء ، والغزل ، والمديح ، وأشار إلى ذلك في تعليقه عليها ، كما عللَّ سبب ذلك ،
وأولها :
كفاني شكوى أن أرى المجد شاكيا ... وحسبُ الرزايا أن تراني باكيا
وهي قصيدة بدويَّةُ الطَّابع . سنعرض لها في موضعها إن شاء الله .
انظر : ديوان ابن خفاجة ، ص١٩٨ .
(٢) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٠٤ .
(٣) المصدر السَّابق ، ص١٨١ .

إنَّه شيءٌ من جولان المشاعر وتطوافها في أرضِ الأجداد ، حيثُ النَّقاءُ والصَّفاءُ ، والحبُّ العذريُّ ، والعذوبة ، لقد اتَّخذت هذه الأماكن رمزيَّتَها خارج نطاقها الجغرافي ، وأصبحت بما تدلُّ عليه من موطنٍ قديمٍ لحياة البادية عاشها الأندلسيُّ بخياله عالماً رحباً ، وذكرى حيَّة ، تحمل سحر الماضي البريء وعبقه ، مما يجعل النهر يعودُ إلى ينبوعه ومصبِّه ، ويتغَنَّى بعراقةِ المشاعر ، ونقائها .

ومن الأماكن التي كانت لها قدسيَّةٌ شعريَّة ـ إذا صحَّ القول ـ ليس في الشعر الأندلسيّ فحسب ، بل في الشعر العربيِّ كلّه (نجد)[1] ، وقد ورثت الأندلسُ نجدَ الرَّمز ، ضمن الموروث الثقافي العربي العريق ، لقد تخلَّت نجد عن دلالتها الجغرافيّة ، وأصبحت لها دلالاتٍ أخرى إيحائية ورمزيَّة .

فنجد ((نجدان ، نجد الحقيقي ، وهو الموضع الجغرافي ، ونجد المجازي الذي صار رمزاً لأرض طيبةٍ كريمةٍ حبيبةٍ إلى النَّفس ، متّصلةً بالقلب لأوطارٍ في الحبّ والوداد والهوى ، وقد بقي نجد المجازي موضوعاً على التَّاريخ الأدبي ، وإنَّ الشَّاعر ليذكره دون أن يعرفه أو يراه ، أو يعيش فيه ، وكأنَّه وطنه ، بل وطن أوطاره))[2] .

---

(١) نجد : بفتح أوله ، وسكون ثانيه ، هي قفافُ الأرضِ وصلابُها ، وما غلظ منها وأشرف ، وقيل كلُّ ما ارتفع عن تهامة فهو نجد ، وقيل حدُّ نجد ذات عرق من ناحية الحجاز ، كما تدور الجبال معها إلى جبال المدينة ، وما وراء ذات عرق من الجبال إلى تهامة ، فهو حجازٌ كلّه .
وقيل ما سال من ذات عرق مقبلاً فهو نجد إلى أن يقطعه العراق ، وحد نجد أسافل الحجاز ، وهودج وغيره ، وما سال من ذات عرق مولياً إلى المغرب فهو الحجاز إلى أن يقطعه تهامة ، وحجاز يحجز أي يقطع بين تهامة وبين نجد ، وقيل ما ارتفع من بطن الرمَّة فهو نجد إلى ثنايا ذات عرق ، وعرق هو الجبل المشرف على ذات عرق .
ولم يذكر الشعراء موضعاً أكثر مما ذكروا نجداً وتشوَّقوا إليها من الأعراب المتضمّرة . انظر : معجم البلدان ، ياقوت ، ٥/٢٦٤ .

(٢) من رسالة خاصَّة من دكتور علي جواد الطاهر إلى محمد بن عبد الله الحمدان .
صبا نجد (نجد في الشّعر العربي) ، محمد بن عبد الله الحمدان ، النادي الأدبي : الرياض ، ط . الأولى ، ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م ، ص٢٣ .

اختفت نجدُ التي عرفها البدو وأسلافُ العرب من الواقع المعيش في الأندلس ، وبقيت نجدُ التي عرفها الوجدان العربي واقعاً معيشاً ، فلنجد حبٌّ دفينٌ في الذَّاكرة العربيَّةِ ، والشِّعر العربيّ جعلها بحقّ رمز الحنين[1] في هذا الشّعر ، ولذا فإنَّ ذكرها في القصيدة يحمِّلُ المعنى تداعياتٍ شتَّى ، وبخاصّةٍ في موضوع النسيب ، ويجعل لحضورِ نجدٍ في هذا النسيب رنيناً شجيًّا ، ((فشاعر النسيب يستخدم مكانه ، وخصوصاً التجليّات الكثيرة للديار ، بوصفه مكاناً تستريح فيه ذكرياته ، التي أصبحت بلا حركة ، وتحوَّلت إلى صور))[2].

فذكْرُ نجدٍ في القصيدة يُحمِّلها وهجاً حنينيًّا دافئاً يعطي أبعاداً لتداعيات الشّاعر النفسيَّة ، والإنسانية ، يقول ابن الزَّقَّاق جامعاً بين نجد المكان ، والمحبوبةُ المتغنَّى بها في حسرةٍ ظاهرة[3] :

بنجدٍ أناخُوا العيسَ بعد تهامةٍ ويا بُعد ما بيني وبينك يا نجدُ!

ويختم بهذا البيت قصيدة بدويَّة ، ذكر فيها (نصَّ الركائبَ والوخد)[4] و(الحمول)[5] و (الرباب)[6] و (هند)[7] و (سليمى)[8].

أمَّا الرصافي البلنسي فيحمِّل الرَّكب تحيَّته لنجد ويصف كيف قطعت العيونُ الطريق إليها شوقاً ووجداً ، يقول[9] :

يا راكباً واللّوى شمالٌ عن قصدِهِ والغضَا يمينُ

---

(١) الحنين : الشوق وتوقان النفس .
وحنّت الإبلُ : نزعت إلى أوطانها ، أو أولادها ، والناقةُ تحنُّ في إثر ولدها حنيناً ، تطرب مع صوت ، والأكثر أن الحنين بالصوت ، ويقال : حنَّ قلبي إليه فهذا صوت مع نزاع ، وكذلك حنّت إلى ولدها ، يقال وأصل الحنين ترجيع الناقة صوتها إثر ولدها ، اللّسان : مادة (حنن) .

(٢) صبا نجد ، ياروسلاف ستيتكيفيتش ، ص٣٥٧ .

(٣) ديوان ابن الزَّقّاق ، ص١٤٢ .

(٤-٨) المصدر السَّابق ، ص١٤١ .

(٩) ديوان الرُّصافي البلنسي ، ص١٣١ .

نجــــداً علـــى أنَّـــه طريــــقٌ تقطعُـــــه للصَّــــبا عيــــونُ
وحــــيٌّ عنِّــــي إن جــــزُتَ حيًّــــا أمضـــــى مواضــــيهم الجفـــــونُ

وإذا كان الشَّاعرُ القديم نوح بن جرير الخطفي قد تمنّى ميتةً بنجد ، التي كانت ملاعبها مرتعاً للظباء ، والوحش ، لا شيءَ يُعكِّر صفاءها ونقاءها ، فقال[1] :

أذا العــرشِ لا تجعــلْ ببغــدادَ ميــتتي ولكــن بنجــد حبّــذاً بلــداً نجــدُ
بلادٌ نــأت عنــها البراغيــثُ والتقــى بــها العين[2] والآرامُ[3] والعُفر[4] والرُّبدُ[5]

فإنَّ الشَّاعر الأندلسيّ ابن خاتِمَة تمنّى حياةً بنجد ، وحنَّ إليها ، واعتلَّ جسمُه شوقاً لعليلِ نسيمها ، وهو يشكو البعد الذي قضى بفراقِه عمَّن يُحب ، وحال بينه وبين أيَّامٍ بالحمى ملأت قلبه سعادة ، فهو يذكرها ، ويأسره الوجدُ حنيناً إليها ، ولم يكن أدلَّ على هذه الذكرى من أن يبدأ القصيدة بنجد ، التي أصبحت رمزاً لشيء محبَّب للنَّفس ، فقده الشَّاعر وتمنَّى رجوعه ، وابن خاتِمة[6] من شعراء الأندلس المتأخرين ، فقد عاش في القرن الثَّامن الهجري ، في هذا الزَّمن الذي كثرت فيه المحن ، واقتربت الأندلسُ من نهايتها ، ولذا

---

(١) معجم البلدان ، ياقوت ، ٥/٢٦٤ .
(٢) العين : جمع عيناء ، المرأة الواسعة العين ، والعين : بقرُ الوحش ، اللّسان : مادة (عين) .
(٣) الريم : الظبي الأبيض الخالص البياض ، اللّسان : مادة (ريم) .
(٤) العفر : من الظباء وهي التي تسكن القفاف وصلابة الأرض ، وهي حمر ، والتي تعلو بياضها حمرة ، قصار الأعناق ، وهي أضعف الظباء عدواً ، اللّسان : مادة (عفر) .
(٥) الرُّبد : النعام قيل نعامٌ رُبدٌ ، وظليمٌ أربد ، أساس البلاغة ، الزمخشري ، ١/٣١٤ ، مادة (ربد) .
(٦) عاش في مملكة غرناطة ، في القرن الثامن ، وقد توفي بعد سنة ٧٧٠هـ ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، لسان الدين بن الخطيب ، ١/٢٥٩ .

وجدنا في شعر هؤلاء المتأخرين حنيناً أكبر ، وتعلُّقاً أقوى بكلِّ الزَّمن الماضي الجميل ، وما يحويه من ذكرى تملؤ المشاعَر دفئاً ، إذْ يقول ابن خاتِمة[1] :

أحِنُّ إلى نجدٍ إذا ذُكِرَتْ نجدُ ... ويعتادُ قلبي من تذكُّرها وجدُ
ويعتلُّ جسمي أن يهبَّ نسيمُها ... عليلاً له بالأثلِ أثلِ الحمى عهدُ
وما مقصدي نجدٌ ولا ذكرُ عهدها ... ولكن لجرِّي من غدَتْ دارُهُ نجدُ
رَمَتْني النَّوى قصداً فأصمتْ مقاتلي ... وللبينِ سهمٌ ليسَ يُخطَى له قصدُ
الاهلُ لأيَّامٍ تقضينَ بالحمى ... سبيلٌ للذي وجدٍ تناهى به الجَهْدُ
إذ الدَّهرُ سعدٌ والزَّمانُ مساعدٌ ... فلا الصبُّ مصدودٌ ولا البابُ منسدُّ

لقد كَثُر ذكر نجدٍ في الشعر الأندلسيّ ، وكانت أقوى دلالة على رمزيَّة الحنين من غيرها من الأماكن ، بكلّ ما في نجد من عبق ودفءٍ ، جعلت الحديث عن نجد أشبه بالغزل ، وجعلت الغزل حين تُذكر نجد أشبه بالحنين إلى هذه الأرض منه إلى محبوبة ، فلم يَعُد من الواضح ، هل يحنُّ الشاعرُ إلى نجد؟ أو يحنُّ إلى محبوبةٍ توهَّم أنها في نجد؟ أم أنه لا محبوبة ولا نجد ، وإنَّما أصبحت نجد والمحبوبة ، يُعيدان للقلب في الشعر البدويّ الأندلسيّ ذكرى أيَّامٍ انصرمت ، أو شبابٍ تولّى وعهدٍ تقضّى ، أو حياة تخيَّلها وبادية تمنّى أن يعيش فيها ، أو مكان في الأندلس وغيرها ، رَمَز له بنجد ، كما أشار ابن خفاجةِ بقوله (إنها خيالاتٍ تنصب)[2] لأنـَّها كانت بحقٍّ أرض الأحلام .

ونكادُ حين تُذكرُ نجد في الشِّعر ، يجتاحُنا ما يجتاح مبدع هذا الشِّعر ، من لواعج الشَّوق والأسى ، وشجى الحزن المفعم بالذِّكريات ، والتشوُّق إلى كلّ ما يعنُّ للشَّاعر أن يتشوَّق إليه ، إذْ أصبحت نجدٌ رمزاً له ، لقد أصبحت نجد

---

(١) ديوان ابن خاتمة ، ص٧٤ .

(٢) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٠٤ .

حقاً (مخيَّم الآمال) كما يقول ابن زُمْرُك[1] الذي كان يعيش في زمن صعب ، في القرن الثَّامن ، حيث الفتن الداخليَّة تزداد ، وقبضةُ العرب على آخر معاقل الأندلس تضعف ، وأصبح النَّصارى على أبواب غرناطة ، يقول ابن زُمْرُك[2]:

يا ساكني نجدٍ وما نجدٌ سوى ... دارُ الهوى ومخيَّمُ الآمالِ
ما للظباءِ الآنساتِ بربعكم ... عُطلاً وهن من الجمالِ حَوَالِ
أو للرّياحِ تهبُّ وهي بليلةٌ ... فتهيجُ من وجدي ومن بلبَالي
هي شيمةٌ عُذريَّةٌ عوَّدتَها ... قلباً شَعَاعاً ما يُرى بالسَّالي

ويعيدُ ابن زُمرك في قصيدةٍ أُخرى وصف نجد بأنَّها (دارُ الهوى) وفي ذلك تأصيلٌ لرمزيتها ، وهو في هذه القصيدة الثانية ، يذكر مع نَجْد أماكنَ الحج المقدَّسة ، (مُصلّى الخيف خيف منى) [3] ويذكر من شعائر الحج يوم النفر (لو كنت تشهدُ يوم النفر) [4] ، ويذكر من معاني الإيمان أن يلزم ذكر الله ويألفه (لله مألفنا) [5] ، ومن السُّلوك الإسلامي ، الصون والعفاف (والصَّون يكنفنا)[6]، وكأنَّه يُحمّل نجداً معنًى قُدسيّاً يشي بصفتي الطهارة والنقاء ، إذ يقول[7] :

لولا تذكُرُ عهدٍ ذكرُه كرمٌ ... ما كانَ دمعي إثرَ الرَّكبِ ينسكبُ
إذا ذكرتَ مُصلَّى الخيفِ خيفِ منى ... يعتادُ قلبي من تذكارِهِ طربُ
بحيث دارُ الهوى نجدٌ ومرتعنا ... ظلالُها والحِمَى من دارِنا كثبُ

ثمَّ يذكر في القصيدة كيف كان العيش في هذه الأماكن ، حيث الدَّار آهلةٌ بالمحبين ، في اجتماعِ آسرٍ سعيد ، يقول[8] :

---

(١) توفي بعد سنة ٧٩٧هـ ، مقدمة ديوان ابن زُمْرُك ، للمحقق محمَّد توفيق النيفَر ، ص١٩ .
(٢) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٤٥٩ .
(٣،٤) المصدر السَّابق ، ص١٧٦ .
(٥،٦،٧) المصدر السَّابق ، ص١٧٥ .
(٨) المصدر السَّابق ، ص١٧٦ .

والشَّمل منـتظم والأنـسُ منسَـحِبٌ وحـظّ عاذلنـا مـن عذلِـهِ النَّصبُ
وكلُّ إلفٍ قضـى مـن إلفِـه وطـراً والعذلُ في سمعِ أربابِ الهـوى صـخبُ
اللهُ يصفحُ عـن يـومِ النَّـوى فلقـد قضى وخلَّـف نـارَ الشَّـوقِ تلتـهبُ

ومن هنا نـرى أن ابن زُمْـرُك أعـدَّ لهذا المعنى بذكـره نجـداً في القصيدة ووصفِها بأنَّها (دار الهوى) فنجدُ التي كانت في بادية العرب ، لا تزال تحيا في قلوب الشُّعراء الأندلسيين بكلِّ رموزها ، وبكلِّ دفقها ، ودفئها الذي يسري في الشِّعر ، ولذا أصبحت كما ذكر أحد النُّقاد داراً للقلب ((سوف تظلُّ مسكونةً إلى الأبد))[١].

وقد شـارك لسانُ الدين بن الخطيب ـ وهو من شُعراء العهود المتأخِّرة أيضاً[٢] ـ ناقته الحنين إلى نجـد فوصـف كيف هاج الناقةَ الشوقُ إلى هذه الأرض ، ومياهها ، وسالف عهدٍ مضى بها ، ولذا أبكاها هذا الاحتياج المبرِّح إلى نجد ، وهو يذكر حنينَ الناقة ، ويشاركها في هذا الحنين أو يتوحّدان معاً ، ولذا أصبحت ذكرى هذا المكان تشعل لهباً من الاشتياق إلى زمنٍ عذبٍ بريء ، يحنُّ إليه الأندلسيُّ في هذه العهود المتأخرة ، حنينَ الإبـل إلى أعطانها[٣] ، يقول ابن الخطيب[٤] :

دعاها تَشِـمّ آثـارَ نجـدٍ ففـي نجـدِ هوًى هاجُ منها ذكـرُه كـامنَ الوجـدِ
ولا تصـرفَاهَا عـن ورودِ جمامـه[٥] فكم شرقت بـالرِّيقِ في مـورد الجهـدِ
يُذيبُ بُراهـا الشـوقُ لـولا مـدامعٌ تُحـلُّ عُراهَـا في المحـاجرِ والخـدِّ

---

(١) صبا نجد ، باروسلاف ستيتكيفيتش ، ص٣٥٧ .
(٢) توفي سنة ٧٧٦هـ ، مقدّمة الإحاطة لابن الخطيب ، للمحقق محمد عبد الله عنان ، ص٤٣ .
(٣) انظر : مجموعة الرَّسائل ، من رسالة الأوطان والبلدان ، الجاحظ ، ص١٠٢ .
(٤) ديوان ابن الخطيب ، ١/٣٠٠ .
(٥) جمامِهِ : الجمام جمع جَمَّةُ المكان الذي يجتمعُ فيه ماؤه ، وماءٌ جمٌّ كثيرٌ ، اللِّسان : مادة (جمم) .

وتصبو إلى عهدِ هنالكَ سالفٍ　　فتُبدي من الشّوق المبرّحِ ما تُبدي

وعلى نحو ما كان المتنبّي واعياً لمغزى سؤالِهِ عن نجد، باعتبارها رمزاً لتشوُّقه إلى حلب حين قال[1] :

نحنُ أدرى وقد سَألْنَا بنجدٍ　　أقصيرٌ طريقنُا أم يطولُ

وكثيرٌ من السُّؤالِ اشتياقٌ　　وكثيرٌ من ردِّه تعليلُ

فإنَّ الشّاعر الأندلسيَّ كان واعياً أيضاً لمغزى ذكره نجداً، يقول أبو بحر التجيبي، (ت : سنة ٥٩٨هـ) [2] :

لِيَ اللهُ كم أهذي بنجدٍ وأهلِها　　وما لي بها إلاّ التوهُّمُ من عهدِ

وما بي إلى نجدٍ نزوعٌ ولا هوى　　خلا أنّهم شنُّوا القوافي على نجدِ

وجاءوا بدعوى حسَّنَ الشِّعْرُ زورَها　　فصارتْ لهم في مصحفِ الحبِّ كالحمدِ

فهم قد شنُّوا القوافي على نجد، أي صبُّوا[3] القوافي على نجد، وأصبحت كما قال الشاعر هنا كالحمد في المصحف، فأشار بذلك إلى تكثُّف الرمز فيها، وأنَّها حين تُذكرُ في الشّعر، تتدفّق في هذا الشّعر شلالات المعاني، وتتداعى الذكريات، فَنَجْد مكوّنٌ من مكوّنات الشّعر قادرٌ على الإثارة، وقادرٌ على جذب النفس إليه، وقوله (شنُّوا القوافي على نجد) يشبه قول الشاعر الأوَّل : (يقام بسلمى للقوافي صدورها) [4] فذكر نجد مثل سلمى التي يقام بها صدور القوافي، فيذكر سلمى من يحبُّها ومن لا يحبُّها (ما كان طبيّ حُبُّها) لأنَّها فريضةٌ في الشعر، ويذكر نجداً من ينزع إليها ومن لا ينزع (وما بي إلى نجد

---

(١) ديوان المتنبي، ٢٧/٣ .

(٢) أبو بحر التجيبي (عمر قصير، وعطاء غزير) تحقيق : محمد بن شريفة، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ط. الأولى، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، ص١٠٤ .

(٣) انظر : اللّسان : مادة (شنن) .

(٤) قال الشاعر مالك بن زغبةَ الباهلي :

ما كان طبِّي حبَّها غير أنَّه　　يُقامُ بسلمى للقوافي صدورِها

العمدة، ابن رشيق، ١٢٢/٢ .

نزوع ولا هوى) لأنّه من الفريضة في الشعر أن تذكر نجد ، فلو لم يحنّ الشاعر إلى نجد ، فإن الشِّعر يوجب عليه ذكر نجد .

وقد كثُر ترديد أسماء الأماكن البدويَّة والحجازيَّة في النسيب البدويّ الأندلسيّ ، ولم يكتفِ الشَّاعرُ بأن يذكر اسماً لمكان واحدٍ في قصيدته ، بل قد يجمع في قصيدةٍ واحدةٍ أماكن متعدِّدة ، لا يشغلُه في هذا الجمع تباعدها جغرافيّاً في الحقيقة ، وإنَّما يشغله أن يصل بمستوى الحنين في هذا النسيب البدويّ إلى قمَّته ، عن طريق إثراء الصورة بدويّاً ، فيذكر الشَّاعر المحصَّب ، والجزع ، والعقيق ونجد ، ويذكر حداء العيس ، والمطيّ ، والركب ، والخيام .

يقول يوسُف الثَّالث مردداً أسماء بعض هذه الأماكن[١] :

علامَ يشوقُ البارقُ المتبسِّمُ ... فؤاداً له بالجزعِ رنمٌ وضيغمُ
وفيمَ أدالَتْ بالغميم دموعَها ... جفونٌ لها يومَ المحصَّبِ موسمُ
وهل عرَّجت هوجُ المطيّ بسحرةٍ ... طلاحاً[٢] على الموماةِ[٣] والقومُ نُوَّمُ
وأين استقلُّوا[٤] حينَ راحت ركابُهم ... وهل أوردوا ماءَ العقيقِ وخيَّموا
وهل أبلغوا أكنافَ سلعٍ تحيَّةً ... ومرّوا بنجدٍ ثمَّ عاجُوا وسلَّمُوا
ترفّق بها يا حاديَ العيسِ إنَّها ... رسائلُ أسرارٍ تُحاط وتُكتم

إنَّ حضورَ هذه الأسماء على هذا النّحو من الكثافة يشير إلى تعلُّق الشَّاعر الأندلسيّ بتلك الأماكن التي تجذَّرت في ذاكرته بما تحمله من عبق البادية وسحرها ، يقولُ الرُّصافي البلنسي[٥] :

سقى العهدَ من نجدٍ معاهدَه بما ... يغارُ عليها الدَّمعُ أن تشربَ القَطْرا

---

(١) ديوان يوسُف الثَّالث ، ص١٠٧ .
(٢) طلاحاً : أي أجهدها السفر ، وأعياها السّير ، اللّسان : مادة (طلح) .
(٣) الموماة : المفازة الواسعة ، الملساء ، لا ماء ولا أنيس بها ، اللّسان : مادة (موم) .
(٤) استقلَّ القوم : ذهبوا واحتملوا سارين وارتحلوا ، اللّسان : مادة (قلل) .
(٥) ديوان الرُّصافي البلنسي ، ص٧٤ .

فياغينةَ الجرعاءِ ما حالَ بيننا سوى الدَّهرِ شيءٌ فارجعي نشتكي الدَّهرا
تقضَّت حياةُ العيشِ إلاّ حشاشةٌ إذا سألت لقياكَ عللّتها ذكرًا
وكم بالنَّقا من روضةٍ مُرجحنَّةٍ تضمَّخُ أنفاسُ الرِّياحِ بها نَشْرا

ويرتبط المكان بالغزل والنسيب ارتباطاً قويًّا ، نكاد لا نفصل فيه بين أن يكون حنينُ الشَّاعر هنا لأرض ، ومكان بَعُدا؟ أم لمحبوبةٍ مضت؟ فهو يوظِّف المكان في هذا النسيب لارتباطه في ذاكرته الثقافيَّة العربيَّة البدويَّة بالشِّعر العذريّ ، العفّ البريء ، الذي نشأ ودرج ونما في هذه الأماكن النجديَّة والحجازيَّة ، ولذا يتلذَّذ الشَّاعر بذكر هذه الأماكن ولا يملُّ من ذلك في شعره ، فـ ((الشَّاعرُ أقربُ إلى السَّعي وراء عودة شعريَّة إلى أسماء أماكن مشهود لها تقليديًّا بأصلها النسيبي)) [١] ، ولذا نجدُ الشَّاعر يقول في القصيدة (من عذيري من غريمٍ باللّوى)[٢] .

ويقول أيضاً[٣] :

يا نسيمَ الرِّيحِ بلِّغْ خبري إن أتيتَ الرَّبعَ أو جئتَ حمَاه

ويتوغَّل في العذريَّة بما تحمله من معاني التذلُّل في الحبّ ليقول : (تُندي الرَّبع بتقبيل ثراه)[٤]، وهو المقياس الأسمى عند النُّقاد القدامى لشعريَّة الحبّ ، وصدق العاطفة[٥] ((إنَّ محيط الدِّيار في النسيب العربيّ هو كذلك وفوق كل

---

(١) صبا نجد ، باروسلاف ستيتكفيتش ، ص٢٣٦ .

(٢،٤،٣) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢/٧٤٣ .

(٥) انظر : نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، ص١٣٤ ، إذ يقول : ((فيجب أن يكون النسيب الذي يتمّ به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك والصبابة ، وتظاهرت فيه الشواهدُ على إفراط الوجد واللوعة ، وما كان فيه من التصابي والرقة ، أكثر ما يكون من الخشن والجلادة ، ومن الخشوع والذلة ، أكثر ما يكون فيه من الإباء والعزّ ، وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضادّ التحافظ والعزيمة ، والانحلال والرخاوة ، فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض)) .

شيء محيطُ ألفةٍ ، ومحيط ذكرى ، وسواءً أكانت دار ما سوف تكون منزلاً موسمياً للمحبوبة ، أو مسقط رأس الشّاعر أو أوطانه ، فإنَّ الحقيقة الماديّة الخالصة للمكان تكون قد فقدت أهميَّتها الشعريَّة))[1].

فالشّاعرُ يذكر هذا المكان ليوطِّدَ بالتالي معنى الحنين ، بكلّ ما يحمله رمزُ المكان من دلالاتٍ عليه ، لأنَّ هذه الأماكن منبعٌ للحنين ، وموطنٌ له ، فهي معشوقةٌ من حيث هي مناسكٌ للحجّ ، وفيها قبرُ النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعشوقةٌ لأنَّها لهذا السبب يلتقي فيها غرباء تنعقد بينهم أواصرُ محبّة وألفة ، ثمَّ يتفرَّقون ، ومعشوقة لأنَّها الموطن الأوَّل لقصص العشق والهوى العذري ، ولذا ارتبطت في الذاكرة العربيَّة بأنَّها رمزٌ للحنين ولذلك وجدنا الشّاعر الأندلسيَّ ، في شعر النسيب البدويّ ، يذكر أماكن الحجّ المقدَّسة مع غيرها من الأماكن البدويَّة في دلالةٍ واضحةٍ على ما ذكرناه من رمزيَّة المكان للحنين ، يقول يوسُف الثَّالث[2] :

سلوها عن الأجراعِ من بطنِ توضحٍ ... وهل وردتْ ماءَ العُذيب نواهلاً
وهل نعم التنعيمُ[3] بعد بعادنا ... وحلَّ الحَيا منها بِطَاحَاً عَواطِلاً
وهل خطرت بالرَّمل[4] آهاً من أهله ... سقاهُ ربابُ المزنِ سحًّا ووابلاً

---

(١) صبا نجد ، باروسلاف ستيتكيفيتش ، ص٣٥٨ .
(٢) ديوان يوسُف الثَّالث ، ص١٦٠ .
(٣) التنعيم : بالفتح ثم السكون وكسر العين المهملة وياء ساكنة وميم ، موضع بمكّة في الحل ، وسمي بذلك لأن جبلاً عن يمينه يقال له نعيم ، وآخر عن شماله يقال له ناعم ، والوادي نعمان ، وبالتنعيم ، مساجد حول مسجد عائشة ، وسقايا على طريق المدينة ، منه يحرم المكيون بالعمرة .
انظر : معجم البلدان ، ياقوت ، ٤٩/٢ .
(٤) الرَّمل : قال العمراني : الرمل موضع بعينه في شعر زهير ، ورملُ مسهّل موضع في قول طفيل الغنوي ، معجم البلدان ، ياقوت ، ٦٩/٣ .

وهو يقول في أوّلها[1] :

ألم تذكري مضناكِ يا بانةَ اللّوى ... وقد ضمَّنا التوديعُ غضًّا وذابلا

وفي هذا السِّياق أيضاً ـ سياق ذكر أماكن الحج في معرض النسيب البدويّ ـ يقول ابن هانئ[2] :

أقوى المحصَّبُ من هادٍ ومن هيدِ ... وودّعونا لطيّات[3] عباديد[4]

ما أنسَ لا أنسَ إجفالَ الحجيجِ بنا ... والرّاقصات[5] من المهريَّة[6] القود[7]

ذا موقفُ الصبِّ من مرمى الجمارِ ومن ... مشاخبِ[8] البُدْن[9] قفراً غيرَ معهودِ

وموقفُ الفتياتِ النَّاسكاتِ ضحًى ... يعثرنَ في حَبرات[10] الفتية الصِّيد[11]

يحرِمنَ في الريطِ[12] من مثنى وواحدة ... وليس يُحرمن إلاّ في المواعيدِ

ذواتُ نبلٍ ضعافٍ وهي قاتلةٌ ... وقد يصيبُ كميًّا سهمُ رعديدِ

والحنين في القصيدة هو الذي يطبعها بطابع البداوة متغلغلاً في ثنايا الذكرى .

وقد ربط الرسول ﷺ بين الشّعر والحنين ، في قوله عليه الصلاة والسلام ((لا تدعُ العربُ الشِّعرَ حتى تدعَ الإبل والحنين))[13]، ولذلك قيل ((أكرم

---

(١) ديوان يوسُف الثَّالث ، ص١٦٠ .
(٢) ديوان ابن هانئ ، ص٨٩ .
(٣) الطيَّة : الموطن والمنزل الذي انتواه والجمع طيَّات ، اللّسان : مادة (طوى) .
(٤) العباديد : المتفرقين ، اللّسان : مادة (عبد) .
(٥) الرقص : الخبب ، اللّسان : مادة (رقص) .
(٦) المهريّة : إبلٌ منسوبة إلى مهرة بن حيدان ، أبو قبيلة ، وهم حيٌّ عظيم . اللّسان : مادة (مهر) .
(٧) القود : جمع أقود ، وهو الذليلُ المنقاد ، اللّسان : مادة (قود) .
(٨) المِشخب : موضع جريان الدّم ، اللّسان : مادة (شخب) .
(٩) البدن : الأضحية من الإبل والبقر والغنم ، اللّسان : مادة (بدن) .
(١٠) الحبرات : جمع حبرة ، ضرب من برود اليمن ، اللّسان : مادة (حبر) .
(١١) الأصيد : الذي لا يرفع رأسه كبراً ، اللّسان : مادة (صيد) .
(١٢) الريط : واحدة ريطة ، وهي الثوب الرقيق اللّين ، اللّسان : مادة (ريط) .
(١٣) طبقات الشافعية الكبرى عبد الوهاب بن على السبكى ـ الابن تحقيق عبد الفتاح الطناحى ـ مكتبة ابن تيمية ط . أولى ١٣٨٨ هـ انظر العمدة لابن رشيق ، ١/٣٠ .

الإبل أحنُّها إلى أعطانِها[1] ، وأكرم الأفلاء أشدُّها ملازمةً لأمَّاتها ، وخير الناس آلفُهم للناس))[2].

فـ ((الحنين إلى الأوطان والأهل والأحباب في مفهوم العربيّ ، هو من رقَّة القلب وعلاماتِ الرُّشد ، لما فيه من الدلائل على كرم الأصل ، وتمام العقل))[3].

فالشِّعر حنينٌ كلُّه ، وتعبيرٌ غنيٌّ بلغة غنيَّةٍ عن أجمل العواطف البشريَّة ، ولذلك وجدنا الشَّاعر الأندلسيّ حين يذكر المرأة في سياق المكان البدوي أو العكس ، فإن شعره هنا :((ليس غزلاً بالمفهوم التقليدي للمعنى ، بقدر ما هو حنينٌ عامٌ شامل ، يشمل منطقةً بأكملها ، إنه حنينُ العربي الغريب المغترب ، نحو المشرق أرض الجذور والأصول))[4] ، وهو المعنى الذي عبَّر عنه ابن زُمْرُك ، حين ذكر أن جسمَه بالغرب ولكنَّ قلبه بالحجاز ، يقول[5]:

جسمٌ بغربِ مقيمٌ … وقلبهُ بالحجازِ
يرتادُ في روضِ نجدِ … مرعى الظباءِ الجوازي

ولذا تميَّز الشعراء العرب بجاذبيَّة التعبير عن هذا الحنين ، وفي ذلك يقول أحد المستشرقين ((لا شعر يتكلَّمُ بإلحاح عن المكان الداخلي الذي هو كلُّه ذكرى وحنين أكثر من الشعر العربي ، فهذا المكان بوصفه صورة شعريَّة يمكن أن يظهر تحت أسماء وتجليَّات كثيرة))[6]، ولذا لم يكن الارتباط بين الحبيبةِ

---

(١) العطن : مبرك الإبل حول الحوض والعطن للإبل كالوطن للناس ، اللِّسان : مادة (عطن) .
(٢) مجموعة الرسائل ، الجاحظ ، رسالة الأوطان والبلدان ، ص١٠٢ .
(٣) الإنسان الأندلسيّ ، بين واقعه العربي ، وما طمح إليه ، دكتور ضاهر أبو غزالة ، ص١٣٧ .
(٤) حياة الشعر في نهاية الأندلس ، دكتورة حسناء الطرابلسي ، ص١٨٠ .
(٥) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٢٧٣ .
(٦) صبا نجد ، باروسلاف ستيتكيفيتش ، ص٣٥٨ .

والديار البدويَّة البعيدة ارتباطاً يحتاج إلى مصداقيَّة ، بل أصبحا في سياقٍ شعريٍّ موحَّد ـ تقريباً ـ هو سياق الحنين ، حنينٌ إلى المحبوبة ، أو حنينٌ إلى الدِّيار التي جمعته بها ، وإن كانت هذه الدِّيار متخيَّلةً في القلب ، ولكنَّها بما تحمله من دلالاتٍ رمزيَّةٍ عميقة تؤصِّل ما يحتاجُ إلى إثباته من حبٍّ وشوق بكلٍّ ما تعطيه هذه الأماكن من إيحاءات ((فإنَّ كل ما يُريده الشاعر حقّاً هنا هو صوت تلك الأماكن القديمة والبعيدة، إنَّ حالته النفسيَّة من الحنين والأسى، لتمتصُّ كلَّ الأصداء البعيدة ، خصوصاً تلك البعيدة على نحوٍ يثير شوقه ، وهي وإن كانت بعيدةً في الزَّمان وفي المكان فهي قريبةٌ منه عرقاً ، وحميميَّةٌ إليه تراثاً)) [1] ، ولذا ؛ يقول ابن خفاجة مستخدماً المكان البدويّ لإثراء المعاني التي يريدها ، والتي ذكر منها : بُعدَ المحبوبة ، وخلو الدِّيار منها ، وأرقه وحنينه إليها ، وفقدانَ الصاحب والخليل ، وذهابَ الشباب ، وإخلاق رسمه ، وهو يتوسَّل في تصوير حزنه وأساه ، لكلٍّ ما ذكره ، وما وجدناهُ بين طيَّاتِ الكلمات من شجى وحزن ـ قد تكون الوحدةُ هي الصَّوتَ الخفيُّ الذي نكاد نسمعه فيها ـ يتوسَّلُ إلى ذلك بوسائلَ من أبرزها : حشد الأماكن البدويَّة في هذه الصُّورة (منعرج اللِّوى) (لعلع) (نجد) (تهامة) ويلحُّ على اسم نجد كثيراً ، لما لنجدٍ من دلالاتٍ عميقة على الحنين ، ولتأصيل ملامح هذه الصورة البدويَّة يذكر (البرق اليماني) و (بانة الوادي) و (نفحاتِ الريح) ، ومسرى العيس من وخد وذميل ، وأنسام العرار من أرض نجد ، وتمنِّي التعريس ، حيث يلتقي بخيال المحبوبة ويتنشق أنسام هذه الأرض ، يقول ابن خفاجة ، في هذه القصيدة التي أوَّلها[2] :

ألا تلعـــــةٌ مطلولـــــةٌ وقبـــــولُ   فينـــدى صـــباحٌ أو يـــرقّ أصـــيلُ

---

(١) صبا نجد ، باروسلاف ستيتكيفيتش ، ص٢٤٦ .

(٢) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٩٣ .

ويقول[1] :

وقد شطَّ محبوبٌ وأجدبَ مرتعٌ ... وأخفق مأمولٌ وقلَّ خليلُ
وأخلق رسمٌ للشبابِ ومعلمٌ ... وأرَّقَ ليلٌ بالفراتِ طويلُ
وحنَّ إلى ميٍّ على النأي نازحٌ ... يحومُ على وصلٍ فعزَّ وصولُ

. . . .

تراءى له البرقُ اليماني فشاقَه ... حبيبٌ وعهدٌ بالحبيبِ مُحيلُ
فيا بانةَ الوادي بمنعرجِ اللِّوى ... أتصغي على شحطِ النَّوى فأقولُ
ويا نفحاتِ الريحِ من بطنِ لعلعٍ ... ألا جادَ من ذاك النسيمِ بخيلُ
وهل تخِدُ[2] الوجناءُ[3] دونك ليلةً ... فتُقضى بآمالي إليكَ سبيلُ
وهل عندَ نجدٍ أنَّ عندي أدمعًا ... تصوبُ وشجواً بينهنَّ يطولُ
فيا خيمَ نجدٍ دون نجدٍ تهامةٌ ... ونجدٌ ووخدٌ للسُّرى وذميلُ
ويا ريمَ نجدٍ والعوادي كثيرةٌ ... بحكمِ الليالي والوفاءُ قليلُ
ألا رجعت عنكَ الشمالُ تحيَّةً ... تمشَّت بها عنّي إليكَ قبولُ
وجاذبني ريَّا العرارةِ ناسمٌ ... يجاذبني فيكِ النحولَ عليلُ
وهل بين هاتيكَ التِّلاعِ مُعرَّسٌ ... وفي ملتقى تلكَ الظِّلالِ مقيلُ
وهل يلتقي عندي خيالُكِ ليلةً ... وريحٌ ببطنِ الواديينِ بليلُ

ويقول ابن خفاجة معلّقاً على هذه القصيدة ((وها هي تتلهّى بالحجازيَّة))[4] والتلهّي بالشيء التعلّل به والتمكُّث ، يُقال تلهيت بكذا ، أي تعلَّلتُ به وأقمتُ عليه ولم أفارقه[5] ، فقوله تتلهّى بالحجازيَّة أي تتعلَّل بها ولا تفارقُها ، ومن الطبيعي ألاّ يفارقَ الإنسانُ ما يحبُّه ـ طوعاً ـ وإن حصلَ الفراق جسديًّا ، فإنَّه

---

(١) ديوان ابن خفاجة ، ص ٢٩٣ .
(٢) الوخد : ضرب من سير الإبل ، اللِّسان : مادة (وخد) .
(٣) الوجناء : الناقة التامة الخلق ، الضخمة ، اللِّسان : مادة (وجن) .
(٤) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٩٦ .
(٥) انظر : اللِّسان : مادة (لها) .

روحيًا لا يحدث ، بل يظلُّ التَّوقُ والحنينُ إلى ما يحبُّه الإنسانُ ويعشقه ، وللشَّاعر أن يحنَّ إلى ما يريد ، ويصيغه في أيِّ صورة يشاء ، وقد وجدنا الشَّاعر الأندلسيَّ عندما يحنُّ إلى شيء ما في نفسه ، يكثر من صياغةِ شعره في أسلوب النسيب البدويِّ ، ويحشد فيه ما عنَّ له من أسماءَ الأمكنة الحجازيَّة والنجديَّة ، يحمِّلها ما يشاء من تداعيات المعاني والذكريات ، فمن الأمثلة على هذا التداعي ، قصيدة لابن زيدون يبدؤها بذكر المكان البدويّ يقول[1] :

على الثَّغبِ[2] الشَّهدي مِنِّي تحيَّةٌ زَكَتْ وعلى وادي العقيقِ سلامُ

وبعد أن يذكر المكان رمز الذكرى (العقيق) يرتدُّ إلى مكانه وهو موطنُ الذِّكرى فيقول[3] :

فمن أجلِه أدعو لقرطبةَ المنى بسُقيا ضعيفِ الطلِّ وهو رهام[4]

وتنهلُّ في القصيدة صورُ (معاهد لهو) ، وزمان غضٌّ مضى وصحبة كالمصابيح[5] ، وهي ذكرياتٌ تضرم في الصَّدر لوعة ، وقد نصَّ ابن زيدون على ذلك في قصيدته ، في البيت الذي نكاد نسميِّه بؤرة القصيدة أو بيت المعنى[6] :

تذكَّرتُ أيَّامي بها فتبادَرَتْ دموعٌ كما خان الفريدَ نظامُ

فذكْرُ وادي العقيق في أوَّل القصيدة نفح في باقي أبياتها حنيناً دافئاً لأماكن أخرى جمعته بالأحبَّة ، وزمان تولّى يشتاقُه ، ومثل هذه التداعيات كثيرة في الشِّعر الجاهليّ ، وأوَّلها بلا شك قصيدة (قفا نبك)[7] لامرئ القيس ، حين

---

(١) ديوان ابن زيدون ، ص١٥٢ .

(٢) الثَّغب : بقية الماء العذب في الأرض ، اللِّسان : مادة (ثغب) .

(٣) ديوان ابن زيدون ، ص١٥٢

(٤) الرهام : المطر الخفيف ، الدائم ، جمع رهمة ، اللِّسان : مادة (رهم) .

(٥،٦) ديوان ابن زيدون ، ص١٥٢ .

(٧) ديوان امرئ القيس ، ص٢١ .

ذكر العذارى ، والصَّيد ، واقتحام الخدر ، بعد الطلل ومثلها أيضاً قصيدة عبيد ابن عبد العزّى السلامي ، (ألا هل فؤادي إذ صبا اليوم نازعُ) [1] حين يذكر الحمى ورميم ، وهي تداعياتٌ للذكرى أهاجتْ الشوّق إليها عرصةٌ بمرّان[2]:

لعمري لقد هاجَتْ لكَ الشوقَ عرصـــةٌ ... بمـــرّانَ تعفوهــا الريـــاحُ الزعـــازعُ

ثمَّ تتداعى الذكريات[3] :

تذكَّرَ أيـــامَ الشـــبابِ الـــذي مضـــى ... ولـــمَّـــا ترُعنـــا بـــالفراقِ الرَّوائـــعُ

((ومع ذلك فإذا كانت أصداءُ التذكُّر ترنُّ بعمق كافٍ ، وهذا في الشِّعر ضرورة ، بقدرِ ما هو ضروريّ لشجرة ما أن تمتدَّ بجذور ثابتة ، فإنَّنا نكون قد اتَّصلنا بالنموذج الأصليّ بالأساس الوطيد للصورة بوصفها تذكُّراً ، وعلى هذا المستوى تحديداً تكتسبُ رمزيَّة كل الدّيار ، ورمزيَّة كل أماكن الألفة ورمزيَّة كل صور تلك الأماكن ، الرغبةَ النهائية في شيء تمَّ امتلاكه في البداية ، شيءٌ مُشار إليه بالعادة الثقافيَّة بوصفه الفردوس)) [4] .

ففي قصيدة لابن خفاجة مطلُعها[5] :

أمقـــامُ وصـــلٍ أم مقـــامُ فـــراقِ ... فالقضـــبُ بـــين تصـــافحٍ وعنـــاقِ

وفيها يذكر اللِّوى[6] :

فلـــو أنْ ســـرحةَ بطـــنِ وادٍ بـــاللّوى ... حييتُهــــا تُصــــغي إلى مشــــتاقِ

لنشـــرتُ بالجرعـــاءِ عقـــدَ مـــدامعي ... ففضضتُ ختمَ الصـــبرِ عـــن أعلاقـــي

يعقِّب ابن خفاجة على قصيدته تلك بقوله :

((فطُوراً يُتنشّق مع العرار بتلك الخمائل ، وتارةً يُعتنق مع الطيف اعتناق الحمائل ، وما ضرَّه وها هو أندى من ظلِّ الغمامة ، وأحلى من سجع الحمامة ،

(١،٢،٣) منتهى الطلب من أشعار العرب ، ابن المبارك ، ٢٧٥/٨ .

(٤) صبا نجد ، باروسلاف ستيتكيفيتش ، ص٣٥٩ .

(٥،٦) ديوان ابن خفاجة ، ص١٥٨ .

فقد طاب نفساً ، وانساب سلساً وكرم نسبة ، وشرُف نصبةً وألَّف بين رقَّة السّحْر ، ونَفَس عنبر الشّحْر ، ألاّ يكون في أكناف العراق يولد ، وفي أرض الحجاز يوجد؟!))[1] ، فابن خفاجة وهو شاعرٌ ينقد شعره ، يرى أنه لا يضرُّ هذا الشّعر النديّ ، أن يتنشّق العرار ، ويوجد في الحجاز ، ونحن إذا قلنا إنَّ الحنينَ باعثُ الشعر ، فإنّه في الأندلس أقوى وأعمق لأنَّ العرب فيها مغتربون جسديًا ، وفي بيئةٍ غير عربيَّة ، ولذا كانت الغربةُ غربتين ، غربة البُعد الجسديّ ، عن أرض البادية ، ذات التاريخ الثري في النفس العربيّة ، والغربة الرُّوحيَّةُ والثقافيَّة نظراً لوجودهم في بيئةٍ غير عربيَّة .

ومن هنا أصبح الحنين أقوى لموطن الآباء والأجداد وأصبح الالتحام بالأصول رغبةً في التجذّر أكثر سرياناً في الشّعر ، وبخاصّةٍ في العصور المتأخرة ، عند ابن الخطيب ، وابن خاتِمة ، وابن زُمْرُك ، وغيرهم ، كما وجدنا في شعرهم فـ ((ليس كالاغتراب شيءٌ يزيدُ من حنين الإنسان إلى وطنه وتعلُّقه به ، فحنينُ العربيّ ظلَّ يشدُّه إلى الدِّيار التي هو منها ، وهذه عادة قديمةٌ حديثةٌ عنده . . .))[2].

إنَّ الشعور بالغربة والحنين قد يكون بسبب ارتحالٍ فعليّ للشاعر من مكان إلى آخر في الأندلس نفسها ، أو من الأندلس إلى أفريقيا وبلاد المشرق وغيرها ، فيختلط في مشاعره المكان الآني الذي كان يعيش فيه وارتحل عنه ، بالمكان المتخيَّل في ذاكرته العربيَّة البدويَّة ، فينثر حنينه تارة إلى القديم ، وطوراً إلى الحديث في مشاعر متشابكة متلاحمة ، ولا ننسى عاملاً مهمًّا في هذا الحنين ، وهو أن العربي كان قد خرج طوعاً إلى الأندلس ، ولكنَّه أُخرج

---

(١) ديوان ابن خفاجة ، ص١٦١ .

(٢) الإنسان الأندلسيّ بين واقعه العربي وما طمح إليه ، دكتور ضاهر أبو غزالة ، ص١٣٨.

عنها كراهيةً ، ولذا فذاكرته الثقافيَّة تحوي اغتراباً طوعيًا ، وحياته المعيشة - وبخاصَّة في العهود المتأخرة ، التي بُليت فيها الأندلس بالحروب والنكبات - تحوي اغتراباً قسريًا .

ولذا فقد يكونُ ارتحال الشاعر ذهنيًا شعوريًا ، فيشعر بالحنين إلى ربوع أجداده ، وإلى أماكنهم ، التي كانت معقلاً للعروبة والأصالة ، فأصبحت عند الشاعر الأندلسيّ ، حلماً ، ورمزاً لذلك .

تقول إحدى الباحثات ((وهذا الحنين يبعث الحيرة في نفس الباحث في الشعر الأندلسيّ ، إذ يحتارُ في تأويله ، فهل هو حنينٌ إلى الأصول مرتبط بالانتماء العرقيّ إذن بالأصل العربي؟ أم هو موقفٌ عقديٌّ وتمسُّك بالانتماء الديني تعزيزاً لموقف الأندلسيّ العربي المسلم في مقاومته للنصرانيَّة؟ أم هو إحساسٌ عام بالارتباط الثقافي بالمشرق مهد اللُّغة والحضارة العربيتين؟ بل لعلَّه يكون حنيناً ذا قيمة رمزيَّة تعبِّر عن أزمةٍ في نفس الشاعر كيانيَّة وجوديَّة ، مرتبطة بوضعه ووضع وطنه المتقلقل ، فيصبح هذا الحنين مثل البديل أو هو الطريقة الفنيَّة التي استصلحها الشَّاعرُ الأندلسيُّ في هذا الطور لردّ الفعل ، يلجأ إليها ويستخدمها عندما يُحدق به الخطر أو يجد نفسه في أزمة؟))(١) ، ونحن نرى أنَّ الحنين في الشِّعر الأندلسيّ يستوعب هذه البواعث كلَّها ، ويستوعب غيرها أيضاً ، لأنَّ النفس الإنسانيَّة نفسٌ مليئةٌ بشحنات عاطفيَّة عميقة كثيرة ومتغيِّرةٍ ، ومن الصَّعب إرجاعُ أمر ما إلى سبب بعينه ، ولذا فإنَّه في هذا الشِّعر ، قد تكثر المسبِّباتُ والتفسيراتُ والتحليلات ، ولكنَّها كلَّها تصبُّ في اتجاه قويّ كبيرٍ جارف وهو (الحنين) ، حنينُ هذه النفس الإنسانيَّة الشَّاعرة إلى كلِّ ما تحتاجُهُ ، وتتطلَّعُ إليه ، وتحلمُ به ، فابن زُمْرُك يصف ناقته وحنينَها إلى العقيق حيث المياه العذبة ، والربيع يحْييه المطر ، وهي تشتاقه وتظمأ إلى ورده ، فتقطعُ القفار شوقاً إليه ، وكلَّما تنسَّمت أنفاسَ الحمى ، سرت في خطوها

---

(١) حياة الشعر في نهاية الأندلس ، دكتورة حسناء الطرابلسي ، ص١٨١ .

الخفّة ، خفّةُ الشّوق ، والوجد ، وإذا عادتها الذكرى والحنين منها تسلّت بالدموع ، وليس هذا حنينُ ناقة ، وإنّما حنين شاعر جعل من رموز الناقة والمكان وسيلةً لتحميل القصيدة ، وهجاً حميمياً دافئاً ، إنّه إلفُ النفس الإنسانيَّة التي حنَّت إلى جنَّةِ الخيال فشاقها التّوقُ إليها ، يقول ابن زُمْرُك[1] :

دعها تحنُّ إلى العقيقِ وبانه فظلالُها رقّت على كثبانه

. . . .

أخفافُها مهما سرى نفسُ الحمى خفّت تساعدُهُ على سَريانه

وإذا هفا البرقُ الحجازي مَوْهناً قدحتْ زنادَ الشّوقِ من لمعانِه

وإذا العقيقُ تذكّرت أسحارَه شابَتْ عقيقَ دموعَها بجُمانِه

حنَّت إلى نجدٍ وليس بدارها لكنّها الِفَت هوى غزلانه

لقد تحوَّلت الحبيبة في هذا الشعر إلى مكان أو اندمجت به ، وأصبح ذكر نجد أو العقيق ، أو الجزع ورامة ، يعني ذكر الحبيبة ، وأصبح حضور المكان في قصائد الحنين الأندلسيَّة ، البدويَّة ، يكاد يطغى على حضور هذه الحبيبة ، وكأنَّ الشّوق الذي كان منحصراً في امرأة ، اتَّسع وأصبح عارماً أكثر ومتدفّقاً باتجاه الجذور ، ((وهكذا يمكن أن نفترض مع بعض اليقين ، وإن كان يقيناً شعريًّا ، أنَّ الإشارات إلى الأماكن على الأقلّ داخل النسيب العرفي ، هي في أغلب الأحوال ذات طبيعةٍ رمزيَّة غير مباشرة ، وأنَّ تشبُّعها المجازي والرَّمزي وخصوصاً في شعر ما بعد الجاهليَّة ، أصبح مكتملاً تماماً)) [2] ، وقد وعى الشّاعرُ الأندلسيُّ شعوريًّا وثقافيّاً ، جمال حضور هذه الأماكن في شعره ، وكان مدركاً تماماً لقدرة هذه الأماكن في إضفاء الدفء الحميميّ السَّاحر على هذا الشّعر ، وهذا ما عبَّر عنه الأعمى التطيلي حين قال[3] :

---

(١) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٣٥٦ .

(٢) صبا نجد ، باروسلاف ستيتكيفيتش ، ص٢٣٧ .

(٣) ديوان الأعمى التطيلي ، ص٣٥ .

وما بال رضوى؟ إنَّما هو شاهقٌ رسا من أميلٍ[١] عانكٍ[٢] أو صفاً[٣] صَلْدِ[٤]
وكم جبلٍ في الأرضِ أشمخُ ذروةً وأحمى حمًى لو أنَّ نجوته[٥] تُجدي
وكانَ لَهم في طَور سينا شبيهُه على خطأ لمّا ادَّعوا وعلى عَمْدِ
ولكنَّها طَارتْ برضوى مطارَها ولم أرَ أحظى من مساعدةِ الجدِّ

وقد لا يكتفي الشَّاعر بحشدٍ لهذه الأمكنةَ الحجازيَّة والنجديَّة في النسيب ، ولكنَّه أيضاً يُثري الصورة البدويَّة فيها بعناصر أُخرى ، ذكرها ابن رشيق حين قال : ((طريقُ أهل البادية ، ذكرُ الرَّحيلُ والانتقال وتوقُّع البين ، والإشفاقُ منه ، وصفةُ الطلول والحمول ، والتشوُّق بحنين الإبل ، ولمع البروق ، ومرُّ النسيم ، وذكرُ المياه التي يلتقون عليها ، والرِّياض التي يحلُّون بها ، من خزامى ، وأقحوان ، وبهار ، وحنوة ، وظيّان ، وعرار ، وما أشبهها من زهر البريَّة الذي تعرفُه العرب ، وتنبتهُ الصحارى والجبال ، وما يلوحُ لهم من النيران في الناحية التي يعدُّون بها أحبابهم))[٦].

وكما قال الشَّاعر القديم ، القتَّال الكلابي[٧] :

إذا هبَّت الأرواحُ كان أحبُّها إليَّ التي من نحو نجدٍ هبوبُها

فإنَّ الشعراء الأندلسيين قد استعانوا في شعرهم بذكر الرِّياح التي تهبُّ من جهة ديار المحبوبة ، والتي تهيِّج الحنين إليها ، وتصحبُ هذه الريح المحمَّلة بأنسام المحبوبة وعطرها قلبَ الشاعر ، تطوفُ به في عرصاتِ

(١) الأميل : مجتمع الرَّمل ، اللِّسان : مادة (ميل) .
(٢) عنك : تعقّد وارتفع ، ورملةٌ عانك فيها تعقّد لا يقدر البعير على المشي فيها إلا أن يحبو ، اللِّسان : مادة (عنك) .
(٣) الصّفا : العريض الأملس من الحجارة ، اللِّسان : مادة (صفا) .
(٤) صلد : أملس ، صلب ، اللِّسان : مادة (صلد) .
(٥) النجوة : ما ارتفع ، ويقال للجبل نجوة ، اللِّسان : مادة (نجا) .
(٦) العمدة ، ابن رشيق ، ١/٢٢٥ .
(٧) الأشباه والنظائر ، الخالديان ، ١/١٤ .

الدِّيار ، وموطن الأحبَّة ، فيشفي عليلُ هذه الرِّيح ، علَّة هذا القلب العاشق ، يقول ابن زُمْرُك[1] :

سلو البارقَ الخفّاق من علمي نجدِ تبسَّم فاستبكى جفوني من الوجدِ

ثمَّ يقول[2] :

وسَلْ خافقَ الأرواحِ وهي بليلة[3] مضمّخةُ الأردانِ عاطرةُ البُردِ
يُصحُّ عليلُ الجسمِ وهناً عليلُها ويهدي من الإبلال[4] أكرمَ ما يُهدي

ويتنشَّق الشَّاعرُ على وجه الخصوص من هذه الرِّياح (ريح الصَّبا) [5] ، إذ تسري الصَّبا في الشِّعر مسراها في النسيم ، وتهبُّ في هذه الأبيات البدويَّة الأندلسيَّة محرِّكةً في هبوبها أجواء الحنين التي لامست روحَ هذا الشِّعر ، ولذا فإنَّ الصَّبا الريح أو النسيم ، أصبحت كنجد المكان ، رمزاً شعريّاً للحنين ، فنسيمُها الذي يهبُّ من نجد جال في أرجاء الشعر الأندلسيّ ، محمَّلاً بعبق الذكرى والديارات ، ((وإذ تبدو مسحتُها الرمزيَّةُ واصلةً إلى حدّ الاستهلاك فهي تكون مع ذلك بالطريقة التي تبقى بها أكثر المواد ثراءً برمزيتها ، غير قابلةٍ للإتلاف غنائيّاً)) [6] .

فابنُ شُهيد يتمنّى تنسُّمَ ريح الصَّبا المحمَّلةَ من ديارات الأحبَّة بعطر الخزامى ، وأريج الكباء المعبَّق إذ يقول[7] :

(١،٢) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٣٢٤ .
(٣) البليلة : ريح باردةٌ مع ندى ، اللِّسان : مادة (بلل) .
(٤) الإبلال : العافية ، اللِّسان : مادة (بلل) .
(٥) الصَّبا : ريحٌ معروفة تقابل الدّبور ، والصَّبا ريح ، ومهبها المستوي أن تهبَّ من موضع مطلع الشمس ، إذا استوى الليلُ والنَّهار ، والصَّبا ريحٌ تستقبلُ البيت قيل لأنَّها تحنُّ إلى البيت ، اللِّسان : مادة (صبا) .
(٦) صبا نجد ، ياروسلاف ستيتكيفيتش ، ص٢٦٦ .
(٧) ديوان ابن شهيد ، ص١٠٣ .

لعلَّ نسيمَ الرِّيح تأتي به الصَّبا ... بنشرِ الخزامى والكباءِ[1] المعبَّقِ[2]

ويجدُ الشَّاعرُ الأندلسيُّ في الرِّياح التي تهبُّ في الأندلس ريح صبا نجد، ويربط بين هذا المكان وتألُّق البرق في سماء الأندلس، الذي يرى أنَّه يسري من حمى نجد، وفي هذين العنصرين البدويين، بواعثُ للذكرى والحنين، إذ يقول ابن فُركون رابطاً في المعنى بين الكلمتين المتجانستين صبا الرِّيح، وصبا الصَّبوة[3]:

يبدي الحنينَ إذا سرى بسرقُ الحمى ... وإذا صَبا نجدِ تهبُّ صَبا لها

وقد استعان ابن فُركون في إثراء الصورة البدويَّة هنا بذكر الرَّكائب: (ما للركائب لا تحلّ حلالها)[4].

والربوع (وتطيلُ في تلكَ الرُّبوعِ سؤالَها)[5]،

والمنازل (هذي منازلها فحيّ ربوعَها)[6].

والخيام (كلفاً بمن طَلَعتْ بأفقِ خيامها)[7]،

والجمال (وأنِخْ جمالك)[8]،

والرُّكبان (فلكم لها الرُّكبانُ واصلت السُّرى)[9]،

والمطايا والهواجر (تزجي المطايا والهواجر تلتظي)[10]،

ويتردَّد رنين كلمة (حنين) في هذه القصيدة في أكثر من موضع: الحنين الذي يبعثه الصَّبا والبرق[11]:

يبدي الحنينَ إذا سرى برقُ الحمى ... وإذا صَبا نجدِ تهبُّ صَبا لها

والحنين الذي يدفعُ الرُّكبان إلى مواصلةِ السُّرى وإتعابِ الرَّاحلة[12]:

حنَّت إلى كُثُبِ المنازلِ فارتَمتْ ... تطوي بها كثبانَها ورمَالَها

---

(١) الكباء: البخور، اللِّسان: مادة (كبا).

(٢) عبقت الرَّائحة: بقيت، اللِّسان: مادة (عبق).

(٣-١٢) ديوان ابن فُركون، ص١١٥.

وهو الحنين الذي يحمده الرُّكبان[1] :

لِمَ لا تحِنُّ لها الرِّكابُ وطالما ... حَمِدَتْ على بُعدِ المدى ترحالَها

وقد يجدُ الشُّعراءُ في هبوب الصَّبا شفاءً وبرداً من نار البُعد وجواه ، يقول ابن فُركون[2] :

حمدتُ لدهري موقفاً جالَتْ الصَّبا ... بأرجائِه سَقيا لأيامها سَقيا

جَرتْ نُشُراً ما بيننا وتسحَّبتْ ... برود[3] بطاحٍ[4] تُبدع النَّشرَ والطَّيا

أمَّا ابن الأبَّار فيرى أنَّ الصَّبا أجَّجَتْ نارَ شوقه ، وكان مسراها سبباً لانهمار دمعه[5] :

كلَّما هبَّت الصَّبا ذكر الشو ... قَ ففاضتْ عيناهُ شوقاً ووجْدًا

ويردُّ بعضُ الشُّعراء العلَّة في رقَّةِ نسيم الصَّبا ونشر عطرها الفوَّاح ، إلى أنَّها اختلطت بأنفاس المحبوبة ، فأخذت منها أريجها ، إذ يقول ابن فُركون[6] :

وهل مازَجَتْ أنفاسُ أحبابَنا الصَّبا ... وإلاَّ فلِمْ رَقَّت ولِمْ عبقتْ نَشْرا

وفي مثل هذا المعنى ، معنى تعطُّر الصَّبا بأريج المحبوبة ، يقول ابن حِمديس متعجِّباً من بردِ نسيمِ هذه الرِّيح كيف تشعل نار الشوق والوجد في قلبه يقول[7] :

أمسكَ الصَّبا أهدتْ إليَّ صَبَا نجدِ ... وقد مُلئت أنفاسُه لي بالوجدِ

رماني بحرِّ الشوقِ بردُ نسيمها ... أخذلت عن حرٍّ مُذيبٍ من البردِ

---

(١) ديوان ابن فُركون ، ص١١٥ .

(٢) المصدر السَّابق ، ص٣١٩ .

(٣) البُرد : من الثياب فيها خطوط ، اللِّسان : مادة (برد) .

(٤) جمع بطحاء ، وبطحاء الوادي ترابٌ ليِّن ممَّا جرَّته السيول ، اللِّسان : مادة (بطح) .

(٥) ديوان ابن الأبَّار ، ص١٨٦ .

(٦) ديوان ابن فُركون ، ص٢٨٨ .

(٧) ديوان ابن حمديس ، ص١٤٩ .

وما طابَ عَـرْفٌ مـن سَـراها وإنَّمـا　　تطيَّبَ في جنحِ الـدُّجى بسُـرى هنـدِ

ونكادُ نلمسُ شبهاً بين البيت الأوَّل في هذه القصيدة ، والبيت الذي يُنسب للمجنون[١] :

ألا يـــا صَـــبَا نجـــدِ　　لكـــم هجـــتَ مـــن وجـــدِ

ويُشخِّص بعض الشعراء ريح الصَّبا ، إذ يحمِّلونها سلامهم إلى الأحبَّة ، يقول ابن زيدون[٢] :

غريبٌ بأقصى الشـرقِ يشـكرُ للصَّـبا　　تحمُّلـها منـه السـلامَ إلى الغـربِ

وما ضـرَّ أنفـاسَ الصَّـبا في احتمالها　　سلامَ هوًى يهديـه جسـمٌ إلى قلـبِ

ومن الرِّياح التي ذُكرت في الشِّعر ، وإن لم يكن بكثرة ما ذُكرت الصَّبا ، النَّعامى ، وهي أبلُّ الريح وأرطبها[٣] ، وقد ذكر ابن الزَّقَّاق هذه الريح متمنياً أن تكون محمَّلةً بالسلام من محبوبته يقول[٤] :

ألا يــا صــاحبيَّ اســتروحَاهَا　　شــآميةً فمــن أهــوى شــآمي

عسـى نفـسُ النَّعـامى بعـدَ وَهـنٍ　　يبشِّــرُ مــن ســليمى بالســلامِ

ويستعيرُ ابن زُمْرُك للنَّعامى صفاتِ المرأة المفعمة بالأنوثة ، والدلال ، فيطلب منها أن تمشي مختالةً بنسيمها مجرِّرةً أذيال هذا النسيمِ المعطَّر فوق الخزامى ، ويُحمِّلُها التحيَّة لأماكن ملأت قلبه وخياله ، (الكثيب برامة) ، ويطلب منها أن تصافح هذا الرَّوضَ الناعمَ النديَّ ، يقول[٥] :

---

(١) ديوان مجنون ليلى ، ص١٣٥ ، والأشباه والنظائر ، الخالديان ، ١/٨٣ .
وذكر المرزوقي في شرح الحماسة أن هذه الأبيات لعبد الله بن الدُّمنية ، شرح الحماسة ، المرزوقي ، ٣/٩٠٩ .

(٢) ديوان ابن زيدون ، ص١٥٣ .

(٣) وهي ريحٌ بين الجنوب والصَّبا ، اللِّسان : مادة (نعم) .

(٤) ديوان ابن الزَّقَّاق ، ص٢٥٤ .

(٥) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٤٥٩ .

بـــالله يـــا ريـــحَ النُّعـــامى جـــرِّري فـــوقَ الخزامـــى عـــاطرَ الأذيـــالِ
وإذا مـــررتَ علـــى الكثيـــبِ برامـــةٍ صافحْ مُحيَّـــا الرَّوضـــةِ المخضـــالِ[1]

ويزيّنُ الشَّاعرُ الصُّورة البدويَّة ، بما يغرسُه في جنباتها من أشجار البادية ، كالعرار[2] ، والرَّند[3] ، والشيح[4] ، والبان[5] ، وبما يعطّر به أنسامنا من رائحة الخزامى[6] ، والبهار[7] ، فالشَّاعرُ الأندلسيّ يتنشَّق رائحة هذه الأشجار من خلال نسيم الرِّيح المُهدى إليه من جهة البادية ، والتي تؤجّج في صدره نيران الهوى ولواعجه، يقول لسان الدين بن الخطيب[8] :

هل كنـــت تعلـــمُ في هبـــوبِ الـــرِّيح نفســـاً يـــؤجّج لاعـــجَ التـــبريح
أهـــدتكَ مـــن شـــيحِ الحجـــازِ تحيَّـــةً غاضت له عُـــرُضُ الفجـــاجِ الفِـــيح[9]
بـــالله قـــل لي كيـــف نـــيرانُ الهـــوى مـــا بـــين ريـــحٍ بـــالفلاةِ وشـــيح

---

(١) الخضل : النبات الناعم ، اللِّسان : مادة (خضل) .
(٢) العرار : بهار البرّ ، وهو نبتٌ طيب الريح ، اللِّسان : مادة (عرر) .
(٣) الرَّند : الآس ، وقيل هو العود الذي يُتبخَّر به ، وهو شجر من أشجار البادية قيل إنَّه يُستاك به ، وهو طيب الرائحة ، اللِّسان : مادة (رند) .
(٤) الشيح : نبات له رائحة طيبة وطعمٌ مرّ ، وهو مرعى للخيل والنعم ، ومنابته القيعان والرياض ، اللِّسان : مادة (شيح) .
(٥) البان : ضربٌ من الشجر ، منه دُهن البان ، اللِّسان : مادة (بون) .
(٦) الخزامى : نبت طيب الريح ، واحدته خزاماة ، والخزامى عشبة طويلة العيدان ، صغيرة الورق ، حمراء الزَّهر ، طيبةُ الريح ، قيل لا يوجد أطيب من رائحة الخزامى ، وهو خيري البر ، اللِّسان : مادة (خزم) .
(٧) البهار : نبتٌ طيب الريح ، وهو العرار الذي يقال له عين البقر ، وهو بهار البر ، ينبت أيام الربيع ، اللِّسان : مادة (بهر) .
(٨) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢٤١/١ .
(٩) فاحت الرَّائحةُ الطيبة خاصَّة سطعت وأرجت ، وتُقالُ للرَّائحة الطيبة ، اللِّسان : مادة (فيح) .

وفي هذا المعنى يقول ابنُ الأبَّار[1] :

يــا حبَّــذا نجــدٌ وســالفَ عهــده ... فيــه اســتفدنا طيبَهــا مــن طيبــهِ
ومجالُنــا مــن روضــهِ بغــديرهِ ... في ظــلِّ مــائسِ دوحِــهِ ورطيبــهِ
وصَبــا تحمَّــل مــن تضــوُّعِ رنــدِه ... وعــرارِه مــا زادَ في وَصَــبي بــه

إنَّه نوعٌ من التسلِّي والتسرّي بذكر المحبَّب إلى النفس ، وهو الأمر الذي وصفه ابن الأبَّار حين قال[2] :

وهمت بوادٍ ينبتُ السِّدرَ والغَضَى ... سُلوّاً لروضٍ ينبتُ الرَّندَ والسروا

لقد اتَّخذ البانُ والرَّند وغيره من نباتاتِ البادية ، صيغةً رمزيَّة حنينيَّة في النسيب الأندلسيّ ، فابن فُركون يصل بهذا المعنى الحنينيّ إلى أن يجعل بان العُذيب ورنده هدف المطايا التي غذَّت المسير إليه حتَّى ضَمُرت ، إنَّه نوعٌ من مبادلة المشاعر مع الرَّاحلة ، أو نوعٌ من إضفاء الصِّفة الإنسانيَّة على هذه المطايا أو بالأحرى مشاعر الشَّاعر الحنينيّة ، يقول[3] :

وما وردهــا عــذبٌ إلى أن يُــبنْ لهــا ... علــى كثــبٍ بــانُ العُــذيب ورنــدُهُ

وهو يركِّز هذا المعنى الرمزي في البيت التالي الذي يقول فيه[4] :

وروضٍ ترى الآمالَ قــد حُلَّــت الحُبَــا ... لديهِ وعهــدُ الأنــسِ أحكــمَ عهــدُه

ويتردَّدُ صدى بيت الصمَّة القشيري الذي يقولُ فيه[5] :

تمتَّــعْ مــن شميــمِ عــرارِ نجــدٍ ... فمــا بعــدَ العشــيَّة مــن عــرارِ

---

(١) ديوان ابن الأبَّار ، ص٨٢ .
(٢) المصدر السابق ، ص٤٣٤ .
(٣،٤) ديوان ابن فُركون ، ص١٣٤ .
(٥) رجح نسبتها إلى الصمَّة القشيري ، محمد عبد الله الحمدان ، في كتابه صبا نجد ، ص٣١ ، والبيت في ديوان مجنون ليلى ، ص١٥٨ ، وذكر المرزوقي في شرح الحماسة أنها للصمَّة القشيري ، شرح الحماسة ، المرزوقي ، ٨٦٩/٣ .

عند ابن خفاجة كثيراً إذ يقول[1] :

وأنشـــقُ لوعـــةً لعـــرارِ نجـــدٍ صـــبا لنجـــدٍ أســـائلُها شميمَـــا

ويقول أيضاً[2] :

خلعَ الهوى ثوبـاً عليـه مـن الضّنى قد شـفَّ عنـه فهـو كـاسٍ عـارِي
يلوي الضلوعَ مـن الولـوعِ لخطـرةٍ مـن شـيمِ بـرقٍ أو شميمِ عـرارِ

ويقول كذلك[3] :

وقلـتُ وقـد شـاقَني ملتقـى شميمِ العـرارِ وبـردِ الصّـبا

إنَّ سياقات هذه الأبيات تكادُ تدور في فلكٍ واحدٍ وهو الذّكرى والحنين ، فوجودُ أزهارِ البادية وأشجارها في هذا الشّعر ، أصبح في مجمله رمزاً لحنينٍ جارف إلى ما يريدُ الشَّاعرُ أن يحنَّ إليه ، فقد يُنشد قول الصمَّة القشيري (تمتَّع من شميم عرار نجد) في غير نجد ، لأن العرار ونجد اتخذا رمزيَّة في الشعر ، أخرجتهما من دلالاتهما المحدودة إلى فضاءاتٍ ودلالاتٍ لا محدودة ، فقد يذكر الشَّاعرُ الأندلسيُّ ما شاء من أماكن أو ديارات أو نباتاتٍ بدويَّة ، متشوّقاً إلى غرناطة ، أو قرطبة ، أو إشبيلية ، لأنَّ ذكر هذه الأماكن النجديَّة والبدويَّة ، وأشجار الصحراء وأزهارها يُعطي هذا الشعر الدفء الحميميَّ السَّاحر ، وكأنَّ

(١) ديوان ابن خفاجة ، ص١١٤ .
وقد جاء هذا البيت في سياق الذكرى ، إذ يشوقه لمع البرق الذي وصفه بالمليح ، ويسهرُ الليل يناجيه ، ويسأله أن يسقي طللاً قديماً بحزوى ويجود عليه بالغيث ، وهو من خلال ذكر البرق وهطول المطر ، يتشمَّم رائحةِ عرار نجد ، التي تأتي بها الصّبا .

(٢) ديوان ابن خفاجة ، ص٣٣ ، ويأتي هذا البيت في سياق التشوق للمحبوبة ، حيث جعله هذا الهوى لابساً ثوب السقم .

(٣) المصدر السَّابق ، ص١١٦ .
قال هذا البيت في سياق التشوُّق لشباب مضى ، وذكرى أيامٍ جمعته بمن يهوى .

الشاعر يوقدُ بهذه النباتات نارَ الغضا أو نار الشوق ، والذكرى ، فيلتهب الإحساسُ بالحنين ويفوح في الشعر أرج هذا الحنين وعطره ، وهو المعنى الذي تضمَّنه قول ابن الزَّقَّاق[1] :

سرى البرقُ من مثواكِ والليل مسودُّ ... تُشقُّ دياجيه كما شُقَّ البُرد
فهيَّج لي شوقاً كما لَفَحِ الغَضَا ... وذكَّرني عهداً كما نفحَ الندُّ

فقد أهاج الشوقَ أو أشعله في قلبه رؤيةُ البرق الذي سرى من ديار المحبوبةِ في هدأة الليل ، ووجدَ في نفسه مع ألم الشوق وعذابه ارتياحاً لأريج الذكرى وعبقها ، وقد ذكر الشُّعراء الأندلسيُّون من نبات البادية أيضاً الغضا ، وهو من نبات الرمل ويُتَّخذ منه الوقود[2].

فابن خفاجة يتمنّى أن يبلغ النسيمُ عنه شوقه إلى أهل الخيام ، وكنّى عن هذا الشوق بقوله ((رقرق أدمعي خلال الديار)) وكأنه يُرسل الدمع سحاباً ينهمر أو يترقرّق خلال هذه الديار ، ويتمنّى أن يهبَّ هذا النسيم على اللِّوى وذي الغضا ، ويداعبَ أشجار البادية هناك أو يصافحها ، وهو يرسلُ الرِّيح وكأنّما يرسُل نفسه وقلبه ، فيجعل من هذه النفس أثيراً أو نسيماً ، يطوفُ بالبادية ، ويستنشق البشام ، ويبلغ الشوق ولواعجه ، يقول[3]:

فليتَ نسيمَ الرِّيح رقرقَ أدمعي ... خلالَ ديارٍ باللّوى وخيامِ
وعاجَ على أجراعِ وادٍ بذي الغضا ... فصافَحَ عنّي فرعَ كلِّ بشامِ[4]

---

(١) ديوان ابن الزَّقَّاق ، ص٢٨٥ .

(٢) الغضا : شجر وهو من نبات الرَّمل وهو من أجود الوقود عند العرب ، وأهل الغضا ، أهل نجد لكثرته هناك ، اللِّسان : مادة (غضا) .

(٣) ديوان ابن خفاجة ، ص٥٢ .

(٤) البشام : شجر طيب الرائحة ، والطعم يستاك به ، اللِّسان : مادة (بشم) .

ولم يكتفِ الشعراءُ الأندلسيُّون بذكر الخزامى والعرار وغيرها من النباتات ذات الرَّوائح العطرة بل ذكروا أيضاً الضال والسدّر[1] ، وهي من أشجار البادية التي يكثر شوكُها ، يقول ابن الأبَّار[2] :

ومن سَـدَرٍ أضـللتُ فيـه مراشـدي أُباحث عن أترابـهـا الضَّال والسِّـدرا
وأذكر بالروضِ الأريـضِ ومـا حـوى تنفُّسـهـا والقـدَّ والخـدَّ والثَّغـرا

وقد ارتبط الشوق والحنين كما وجدنا في الأبيات السابقة وغيرها بالأرق ، الذي يستدعي التأمُّل في السماء ، فيشوقه منها وميضُ الغمام ولمعانُه من جهة ديار المحبوبة ، وقد أكثر الشعراء الأندلسيُّون في نسيبهم البدويّ من وصف لمع البرق وإيماضه ، وهو من خالص بيئة البداوة ، لما في شومِ البرق عند البدويّ من وعدٍ بهطولِ الأمطار ، وسقيا الأرض ، ولما في إيماض البرق ، وتوالي لمعانه من بُشرى بهذا الغيث الذي فيه حياةُ البدويّ وصحرائه ، ولذا ؛ أكثر الشعراء من وصف هذا البرق ولمعه في الشِّعر الجاهلي وما بعده ، حتَّى في الأندلس حيث لم تكن البيئةُ في معظمها صحراءً كما كانت في الجزيرة العربيَّة ، ولكن يظلُّ للمطر ، عند العربيِّ قيمتُه الكبيرةُ في النفس والشِّعر ، ففيه معاني الخصب ، والنماء ، والعطاء ، والإرواء والجمال ، ((ولعلَّ ومضاتِ البرق التي اعتادت أن ترشدَ نظرةً متفرسةً لبدويّ قديم إلى اتّساع الأفق ، سوف توجَّه الآن روحه المشتاقةُ إلى وطنه ، إن تغييرات كهذه مستحضرةٌ كي تجد طريقها شعريًا إلى البنية المواتية للنسيب))[3] يقول ابن خفاجة[4] :

أرقـتُ وقـد نـامَ الخلـيُّ لنـازحٍ تشظّت حصاةُ القلبِ في حبِّـه صَـدْعا

---

(١) السّدر : شجر النبق ، واحدتـهـا سدرة ، وقيل السِّدر من العضاة ، وهو لونان فمنه عبريٌّ ، ومنه ضالٌ ، فأما العبري فلا شوك فيه إلا ما لا يضير ، وأمَّا الضال فهو ذو شوك وهو بريٍ ـ اللِّسان : مادة (سدر) .
(٢) ديوان ابن الأبَّـار ، ص٢١٧ .
(٣) صبا نجد ، ياروسلاف ستيتكيفيتش ، ص١٨٧ .
(٤) ديوان ابن خفاجة ، ص٨٦ .

ومـــا شـــاقَني إلاّ ومـــيضُ غمامـــةٍ تطلّـــعُ في نجـــدٍ فحـــيِّ اللّـــوى ربعَـــا
أشـــيمُ ســـناهُ والســـماءُ مغيمـــةٌ كما اغرورقـــتْ عـــيني لرؤيتِـــه دَمْعَـــا
فـــذكّرنِي والليـــلُ ينـــدى جناحُـــهُ بمعطفِـــهِ خفقـــاً ومبســـمِه لَمعَـــا

فابن خفاجة يبدأ قصيدته بمقابلةٍ بين أرقه هو ، ونوم صاحبه ، وهو المعنى الذي يكثر في الشعر الجاهلي ، يقول أوس بن حجر[(١)] :

إني أرقـــتُ ولم تـــأرق معـــي صـــاحي لمســـتكفٍّ بُعيـــدَ النّـــومِ لـــوَّاحِ
قد نمتُ عنه وبـــاتَ الـــبرقُ يُســـهرني كمـــا استضـــاءَ يهـــوديٌّ بمصـــباحِ

وابن خفاجة يعطينا العلَّة التي بسببها أرِق هو ونام صاحبه الذي وصفه بالخليّ ، أي خالي القلب من الحب ، بينما هو يأرق (لنازح) بعُد عنه ، ويقصد به المحبوبة التي رحلت فصدعت قلبه ، وهو يقول في وصف هذا القلب (حصاة القلب) ولا يعني بذلك وصف قلبه بالقسوة أو الغلظة وإنَّما أراد التعبير عن شدَّة الأسى والوجد الذي جعل هذا القلب يتصدَّع ويتشعَّب ، ولذا ؛ فهو يتطلَّع للسماء التي يشوقُه منها لمع البرق وإيماضه ، وقد قال (أشيمُ سناهُ والسماءُ مغيمةٌ) على العادة البدويَّة فشام البرقَ أي نظر إليه أين يقصد وأين يمطر[(٢)] ، وهو الأمرُ الذي كان البدويُّ يترقبه ، وتحتاج إليه صحراؤه ، وهو هنا يتطلّع إليه ليروي ظمأ عشقٍ فاضَ به ، فشومه البرق ، استمطر الدمع من عينيه شوقاً لمن يحبُّ .

ويصفُ ابن هانئ أرقه أيضاً للبرق على طريقة أهل البادية ، وما يتبعه رؤية هذا البرق من حزن وأسى أجرى الدموع من عينيه ، ونتلمَّس هذا الأسى في قوله (ذكرتك ليل الرَّكب) حيث يربط بين الذكرى ومسرى الحبيبةِ ليلاً يقول[(٣)] :

---

(١) ديوان أوس بن حجر ، تحقيق : دكتور محمد يوسف نجم ، دار صادر ، ط . الثالثة ، ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م ، ص١٥ .
(٢) انظر : اللّسان : مادة (شيم) .
(٣) ديوان ابن هانئ ، ص١٨٨ .

أرِقــتُ لــبرقٍ يســتطيرُ لــه لمــعُ فعصفرَ[1] دمعي جائلٌ من دمي رذْعُ[2]
ذكرتكَ ليلَ الرّكــبِ يســري ودونَنــا على إضمٍ[3] كثبانُ يــبرينَ[4] فــالجزعُ

وفي مثل هذا المعنى ـ معنى الشوق الذي يهيجه رؤية البرق ـ أبياتٌ لابن زُمْرُك يذكر فيها سفحه الدَّمع شوقاً ، عندما يهيجُ له الذكرى ، لمعانُ البرق ، وهبوبُ النسيم ، ويبالغ في الوصف أيضاً حين يذكر تضرُّج هذا الدمع بالدَّم ، في كنايةٍ عن شدَّة الوجد ، ثمَّ يذكر علَّة هذا الوجد فهي (عادة عذريَّة) في دلالة واضحة على وعي معظم الشعراء الأندلسيين بهذه الدلالات العذريَّة في النسيب ، وأن استخدام الشاعر لهذه العناصر البدويَّة كان ـ غالباً ـ عن وعيٍ منه بإيحاءاتها ، وعطاءاتها ، ورمزيَّتها في الشّعر ، يقول ابن زُمْرُك[5] :

أللمحــةِ مــن بــارقٍ متبســمِ أرســلته دمعــاً تضــرَّج بالــدَّمِ
ولنفحةٍ تــهــفــو ببانــاتِ اللّــوى يهفــو فــؤادُكَ عــن جــوانحِ مُغــرمِ
هــي عــادةٌ عذريَّــةٌ مــن يــومِ أن خُلِــقَ الهــوى تعتــادُ كــلَّ متــيَّمِ

وقد يتوهَّم الشَّاعرُ أنَّ هذا البرق الذي أومضَ في الأندلس جاء من جهةِ العُذيب وبارق ، فتشتعل نارُ الشوق في قلبه ، يقول ابن الأبَّـار[6] :

كــم بــارقٍ بــين العُــذيب وبــارقٍ يبــدو لزنــدِ صــبابتي قــدَّاحَا

---

(١) عصفر : اختلط لونه بالأحمر ، اللّسان : مادة (عصفر) .
(٢) الردع : يطلق على الدم على سبيل التشبيه بالزعفران ، اللّسان : مادة (ردع) .
(٣) إضم : اسم جبل ، وقيل موضع ، اللّسان : مادة (أضم) .
(٤) يبرين : بالفتح ثم السكون ، وكسر الراء ، وياء ثم نون قيل هو رملٌ لا تدرك أطرافه عن يمين مطلع الشمس ، من حجر اليمامة ، وقيل من أصقاع البحرين ، ويبرين قريةٌ من قرى حلب . انظر : معجم البلدان ، ياقوت ، ٥/٤٢٧ .
(٥) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٤٨٣ .
(٦) ديوان ابن الأبَّـار ، ص١٢٣ .

ويقول ابن زُمْرُك في هذا المعنى أيضاً[1] :

وقلبٌ إذا ما البرقُ أومضَ مَوْهِناً قدحتُ به زنداً من الشَّوقِ وارِيا

وقد أكثر الشُّعراءُ من تشبيه لمع البرقِ بتبسُّمِ المحبوبة ، يقول ابن زُمْرُك من خمسة أبياتٍ بدويَّة[2] :

أيا بُريقاً بالعقيقِ أوْمَضا ونحو سكانِ الغَضَى تعرَّضا
أمبسمٌ منكَ استنارَ في الدُّجى أم بارقٌ من ثغرِ ليلى قد أضا

وقد حذا الشاعرُ الأندلسيُّ هنا حذواً جاهليًّا قديماً ، وهو تردُّد الشاعر في بيانِ سرِّ ما تراه عينه (أمبسمٌ منك استنار) ، (أم بارقٌ من ثغر ليلى) . ونرى هذه الصورة في قول النابغة[3] :

ألمحةٌ من سَنَا برقٍ رَأى بصري أم وجهُ نُعمٍ بدا لي أمْ سَنَا نارِ
بل وجهُ نُعمٍ بَدَا والليلُ معتكرٌ فلاحَ من بينِ أثوابٍ وأستارِ

وكما اشتاقت صحراءُ البدويّ لهطول المطر فآنسَ من إيماضِ البرق الخير ، اشتاقت صحراءُ القلب الأندلسيّ لكلِّ ما في هذا الإيماض من معنى الدّيار ، والمحبوبة ، والأليف ، يقول ابن زُمْرُك[4] :

يضيءُ ظلامُ اللَّيلِ ما بين أضلعي إذا البارقُ النجديُّ وهناً بَدَاليا
أجيرَتَنا بالرَّملِ والرَّملُ منزلٌ مضى العيشُ فيه بالشبيبةِ حاليا
ولم أرَ رَبعاً منه أقضى لبانةً وأشجى حماماتٍ وأحلَى مجانيا

ولذا أهاج هذا البرقُ الشوق واستدرَّ الدموع ، يقول يوسُف الثَّالث[5] :

ولمَّا أهاجَ الوجدَ منّي والبكا وميضٌ بأعلى الرَّقمتين يلوحُ

---

(١) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٥١٤ .
(٢) المصدر السَّابق ، ص٢٦٢ .
(٣) ديوان النابغة الذبياني ، ص١٤٨ .
(٤) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٥١٤ .
(٥) ديوان يوسُف الثَّالث ، ص٢١ .

أمَّا ابن خفاجة فيشخّصُ البرق ، إذ يجعل منه رسولاً يُحمّله السلام للجزع ويقصد ساكنته ، ويطلبُ من هذا البرق أن يسأل الرياح (رياح الطيب) عنها إذا وصل ديارها باللّوى ، ويذكّرها بما كان بينهما من ذمَّة مرعيَّة ، وهو يُسند الطيب للرّياح لأنّها من جهة المحبوبة ، يقول[1] :

ولقد أقولُ لبرقِ ليلٍ هاجَني | فمسحتُ عن طرفٍ به مستعبرِ
اقرأ على الجزعِ السَّلامَ وقل له | سُقّيتَ من سَبَلِ الغمامِ الممطرِ
بيني وبينكَ ذمَّةٌ مرعيَّةٌ | فإذا تُنوسيَتْ الأذمَّةُ فاذكرِ
وإذا غشيتَ ديارَ ليلى باللّوى | فاسألْ رياحَ الطِّيبِ عنها تُخْبَرِ

إنَّ تشخيصَ الطبيعة هنا : البرق والمكان والريح حيث أصبحوا رُسلاً وأناساً تُنقَل بينهم السلامات والأخبار ، وتداخُلَها مع التلميحات البدويَّة ، يُبين لنا مدى قوّة مداخلة العناصر البدويَّة في النفس الشاعرة الأندلسيَّة .

وقد خاطب الشَّاعرُ الأندلسيّ البرق واستسقاه لديار المحبوبة ، كما فعل الشاعر الجاهليُّ[2] ومن بعده لأن في المطر صفات النقاء والعذوبة والخصب والنماء والشَّاعر يستسقيه لديار محبوبةٍ نائيةٍ أشاعَ ذكرها في نفسه مثل هذه الصفات ، يقول ابن الزَّقَّاق[3] :

يا برقَ نجدٍ هل شعرتَ بحبّهم | وهبَ الكرى لوميضكَ المتبسِّمِ

---

(١) ديوان ابن خفاجة ، ص٤٨ .

(٢) يقول المثقب العبدي :

سقى تلك من دارٍ ومن حلّ ربْعَها | ذهابُ الغوادي وبلُها ومُديمُها

ديوان المثقب العبدي ، ص٧٥ .

ويقول عبيد بن الأبرص :

سقى الربابُ مجلجلُ الـ | أكنافِ لمَّاحٌ بروقه

ديوان عبيد بن الأبرص ، ص٩٦ ، والأمثلة كثيرة تعزُّ على الحصر .

(٣) ديوان ابن الزَّقّاق ، ص٢٤٩ .

مـــا طَالعتُـــه في الـــدُّجى لـــك لمحـــةٌ إلاّ وقـــالَ لـــدمعِ مقلتـــه اســـجمِ
ناشـــدتكَ اللهَ اســـقينَّ ربى الحمـــى ســـحباً تطرّزهـــا بنـــوءِ المِـــرْزمِ[1]

والدُّعاء بالسقيا للمكان البدوي ، أو لزمانٍ مضى في ذلك المكان كثيرٌ في الشعر الأندلسيّ ، فالرُّصافي البلنسي يدعو بالسُّقيا لليالِ بالحمى[2] :

فســـقى اللهُ عشـــيَّاتِ الحمـــى والحمـــى أكْـــرمُ هطَّـــال ســـقى

ويقول يوسُف الثَّالث داعياً بالسقيا للجرعاء[3] :

سَـــقَى اللهُ بالجرعـــاءِ داراً يحلُّهـــا هـــلالٌ بقلـــبي لا أقـــولُ لـــه القصـــرُ

ويطلبُ ابن زُمْرُك من الوسميّ وهو مطرُ أوَّل الربيع[4]، أن يسقي نجداً التي يتشوَّق إلى نسمةٍ تهبُّ من جهتها ، وإن كانت تهيج في نفسه لواعج الحزن والأسى يقول[5] :

يا أهل نجـــدٍ ســـقى الـــوسميُّ ربعكـــمُ غيثاً ينيلُ غليـــلَ التُّـــرب مـــا اقْتَرحَـــا
مـــا للفـــؤادِ إذا هبَّـــتْ يمانيـــةٌ تـــهـــديه أنفاسُها الأشـــجانَ والبُرحَـــا
يا حبَّذا نسمةٌ مـن أرضكـم نفحـتْ وحبّذا ربربٌ مـن جـوْكم سـنَحا

وهكذا . . . . ،

وجدنا الشَّاعر الأندلسيّ يستعين في نسيبه البدويّ بذكر الأماكن النجديَّة والحجازيَّة ، وما فيها من عناصرَ طبيعيَّة ، كلمع البرق ، وهبوب الرياح ونباتاتِ البادية .

---

(١) المرزم ، من الغيث ، السحاب الذي لا ينقطع رعدُه ، اللِّسان : مادة (رزم).
(٢) ديوان الرُّصافي البلنسي ، ص١١٢ .
(٣) ديوان يوسُف الثَّالث ، ص٧٢ .
(٤) الوسميُّ : مطر أوَل الرَّبيع ، وهو بعدُ الخريف ، سُميّ بالوسميّ لأنه يسمُ الأرض بالنبات فيصير فيها أثراً في أوَّل السنة ، اللِّسان : مادة (وسم).
(٥) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٣٧٥.

وقد أصبح المكان البدويُّ بما فيه من هذه العناصر رمزاً قويّاً لمشاعرَ دافئة نحو شيء محبَّب ، ووجد الشَّاعرُ الأندلسيُّ أنَّ صوت المكان الساري من ديار نجدٍ والحجاز ، ورنينه في ثنايا النسيب ، يُعزِّز معنى الحنين فيه .

فالشَّاعرُ العربيُّ في الأندلس ، وفيٌّ لتراثه الثقافيّ ، ووفيٌّ أيضاً لعروقه وأصوله ، وجذوره العربيَّة ، وقد ساعد وجوده في بيئةٍ غير عربيَّة بعيدة ، على تعميقِ هذه الجذور وتأصلها في نفسه وشعره ، كما زاد ذلك من حنينه لأرضٍ داعبت مخيلته وقلبه بصحرائها وفضائها .

* * *